٥٦٥

دار م. النحاس

565

HARLEQUIN

قلوب عبير

www.elromancia.com

مرمورية

الطفلة

ستيلا باجويل

الطفلة

ستيلا باجويل

تزعزع كيان الأرملة الحلوة، كاثلين غلاغر هايز، عندما هبت عاصفة ثلجية عنيفة منعتها من الذهاب إلى مزرعة والديها عشية العيد.

أذعنت للأمر الواقع، وصممت على ان تمضي عطلتها بمفردها، وإذ بها تسمع طرقاً على الباب... وإذا بشاب غريب بدا في غاية الوسامة، طلب اليها ان تأذن له بالدخول الى منزلها!

لم يشعر روس دوغلاس، في أي وقت مضى، بالفرحة بلقائه امرأة مثل فرحته في تلك اللحظة. كان يتجنب أمور الحب والزواج، لكن يمر المرء بأوقات يحتاج فيها الى لمسة رقيقة من امرأة. كما حصل له، عندما اكتشف وجود مولودة جديدة، تركت في رواق منزله.

وصول روس غير المنتظر، أثار في كاثلين رغبة في تكوين عائلة ولو لفترة قصيرة. لكن بزوال الثلج، اختفى الحلم - يبقى الامل الذي قد يؤثر في الغرباء الثلاثة، فيجمع شملهم، وتتكون عائلة حقيقية.

سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١ دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١.٥ دينار - المغرب: ٨ درهم مغربي - سلطنة عمان: ١ ريال - تونس ٢ دينار

هل أنت واثق من أني بحاجة لأتعلم القيام بذلك؟

أدارت كاثلين رأسها عن الطفلة، فإذا بوجهها على مقربة حثيثة منه، وعندما التقت العيون، خفق قلبها خفقة خفيفة غريبة، وسرعان ما تحولت هذه الخفقة إلى ضربات سريعة.

«لا نعرف إلى متى سيستمر الثلج والجليد، كل ما نعرفه هو أنه يتحتم علينا ان نتصرف كوالدين لها لعدة أيام.»

«عدة أيام؟»

لم يكن يعلم ان كان سيبقى على قيد الحياة وبرفقته هذه السيدة لأيام معدودة. فقد جعلته يفكر بأشياء لا يجدر به ان يفكر بها، وقال: «انا لا اعرف شيئاً عن الأبوة.»

ضحكت ساخرة: «وانا أيضاً، لا اعرف شيئاً عن الأمومة. اظن انه يمكننا ان نتعلم معاً.»

ستيلا باجويل

تعيش مع زوجها وابنها في جنوبي غربي اوكلاهوما، حيث تقول ان الطقس شديد الحر والبرد، لكن الناس ودودون - حين تتوقف عن كتابة مثل هذه الروايات الرومنسية، تجدها تستمتع بركوب الخيل وبالتجوال في الريف على الدراجة النارية.

تعتز ستيلا بنفسها لأنها قادرة على منح الفرح للآخرين من خلال كتبها. والآن نتقدم بالشكر إلى مكتبة اوكلاهوما للكفيف، الموجودة في مدينة اوكلاهوما، التي امكنها الوصول إلى جمهور كبير، إذ قامت المكتبة بنقل مؤلفات ستيلا على اشرطة تسجيل، ليتمكن الكفيفون في جميع أنحاء الولاية من الاستمتاع بها.

٥٦٥

khouloub Abir 565

الطفلة

ستيلا باجويل

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromancia.com

الفصل الأول

عقدت كاثلين كالاغر هايز حزام روبها حول خصرها، ثم مالت برأسها نحو صوت واهن يئز على نافذة غرفة نومها. هل هو الجليد؟

انطلقت مسرعة في غرفتها، بقدميها العاريتين وازاحت الستائر الثقيلة. كان الهواء الرطب الدافىء الذي تسرب من الحمام وهي تأخذ دشاً قد اضفى غشاءً على النافذة مسحت بيدها على الزجاج ثم راحت تحدق في الظلمة الداكنة، وتأوهت بصوت عالٍ لدى رؤيتها المنظر.

كانت شجرة الصمغ تغطي جزءاً من النافذة المقابلة لجهة الشمال، آنذاك، لم تمنع الأغصان، إلا بشكل طفيف، وقف حبيبات الثلج الصغيرة التي كانت ترشق بقوة على زجاج النافذة.

آه، كيف يمكن ان يحصل ذلك في هذه الليلة وليس في سواها من باقي الليالي. انها ليلة العيد! عائلتها واصحابها مجتمعون معاً لإحياء حفلة خطوبة شقيقها نيكولاس.

إنها لم تلحظ أي تكثف للغيوم قبل ان تدخل الحمام، قد لاتزال الرؤية واضحة على الطريق العام وربما تمكنت من الهبوط من الجبل بسلامة.

من امام واجهة منزلها، اسرعت كاثلين بحذر شديد نحو الرواق المتماسك ذي عرائش غطت الطرف الشمالي منه والتي كانت قد اعاقت بعض الجليد من ان يتسرب إلى

داخله. لكن السلم والرصيف الممتد على طول الجهة الملاصقة للمنزل كانت مغطاة بقشرة جليدية شفافة. وقد استطاعت كاثلين مراقبة هذا الجليد وهو يزداد سماكة دقيقة إثر دقيقة.

كانت كاثلين ترتجف عندما همت مسرعة في الدخول إلى منزلها وبحذر شديد وفي الوقت المناسب، إذ سمعت جرس الهاتف يرن، وراحت تتشبث بقوة بردائها الثقيل في حين أسرعت لتجيب على المكالمة.

«آلو.»

«كاثلين، من حسن الحظ انك اجبت، لقد كنا جد خائفين من ان تكوني الآن في طريقك الينا وبسيارتك.»

على الفور، استطاعت ان تميز صوت أخيها «نك، لقد خرجت لتوي من الحمام. ورأيت الجليد ينهال هنا بشكل جنوني وقد غطى الأرض!»

«لقد تصورت ان يكون الوضع على ما هو عليه. انها تندف عندنا.»

«تندف؟ هل هي عبارة تختص بالطقس وتستعملونها في الجيش؟»

ضحك وأجاب: «كلا انها عبارة تعطي معنى بين المطر المتثلج والمطر المتجمد. كنت اعتقد ان الجميع يعرفها.»

«اظن اني لست مطلعة عليها قدر اطلاعك انت، يا شقيقي العزيز. إذن ماذا عساي ان افعل؟ اعتقد وعلى الأرجح، ان الطريق العام قد تغطى الآن بالجليد. نك، لا يمكنني ان افوّت حفل خطوبتكما أنت وأليسون. فمن دوني ما كنت خطبت!»

ضحك مجدداً وقال: «امنحيني بعض الثقة، يا شقيقتي. مهما يكن من أمر، فأنا من وقعت أليسون بغرامه.»

إبتسمت كاثلين. كان شقيقها يبدو وكأنه امتلك العالم، وهي لا يمكن ان تكون اكثر سعادة بشقيقها مما هي عليه الآن. «نعم، ولكن لا تنسى بأنني انا من قربتها منك ولو قليلاً، والآن ليس باستطاعتي حتى ان اكون هناك لاحتفل معكما.» تأوهت ثم تمتمت: «ما كان عليّ ان آتي اليوم إلى المنزل. كان من الأفضل لي ان أبقى في المزرعة وألبس رداءً رثاً للحفلة، لكنت على الأقل، بقيت هناك، ولست مسجونة هنا!»

صرخ بها بنبرة كان يرفعها على مجندين في الثكنة اثناء تدريبه لهم: «كاثلين، لا تفكري حتى بالمجيء إلى المزرعة الليلة! قد تكسرين عنقك، أو قد يحصل ما هو أسوأ.»

تغيرت ملامح وجه كاثلين فيما غمرتها خيبة أمل. وقالت: «لقد اشتريت أطراً جديدة للسيارة، قد استطيع الوصول، ان انا قدت السيارة على مهل.»

«كلا! امنعك انا ووالدي من فعل ذلك، ليس هناك طريق اخطر من طريق عام «٧١» عندما تكون زلقة. وحفلة خطوبتي لا تستحق ان تنزلقي لأجلها من منحدر جبل.»

كانت كاثلين تعلم انه على صواب، لكن ذلك لم يشعرها بالتحسن. «اعرف... لكنني لا اريد ان افوت فرصة اللهو المرح... ان مناسبة خطوبتك أنت وأليسون قد افرحتني، وسام واوليفيا قد وصلا لتوهم من شهر العسل. انها أمسية العيد! هناك الكثير ينتظرني لأحتفل به بدل ان أبقى عالقة هنا!»

«أعرف عزيزتي، نريدك معنا أيضاً، لكن ليس على حساب سلامتك.»

«إنه لأمر سهل ان تتفوه بذلك. أنت هناك، أنا من هي مسجونة هنا ولوحدي!»

بدا نك منزعجاً تماماً كشقيقته، ثم قال: «حسناً، قد نحاول أنا وسام المجيء وراءك في شاحنته الصغيرة. قد يمكننا اجتياز الجبل إلى حيث أنت، لكن لا أعدك بأننا قد نتمكن من الرجوع.»

بدا وكأنه غير متحمس للفكرة، ورأت كاثلين بأنه ضرب من الجنون ان تشجع شقيقها على القدوم إليها. لذا قالت: «كلا، قد يكون عملاً جنونياً بالنسبة لكم وكذلك بالنسبة لي. ان أليسون واوليفيا قد تقدمان على قتلي ان حدث مكروه لأي منكما. عدا عن نلك، بأي حال، ان بقي الوضع على ما هو عليه ولوقت طويل ستقوم السلطات المحلية بقطع الطريق.»

«نحن حقاً آسفون يا شقيقتي، وسنفتقدك لعدم وجودك بيننا، ربما قد تكونين معنا على العشاء.» أضاف مفعماً بالأمل.

كان باستطاعة كاثلين ان تسمع الموسيقى المنبعثة من الراديو، وصوت والدها وهو يلاعب بنجامين لعبة «الدغدغة» كما كان يقاطع قهقهة وصراخ الصبي ضحك والدها العميق، لقد كان من السهل على كاثلين ان تتصور كيف ان عائلتها والاصدقاء مجتمعين مع بعضهم البعض في بيت المزرعة القديم، يشوون اللحم على نار الموقد، ويرقصون في الردهة ويشربون نخب خطوبة نك مع كل اصناف الأكل والشراب، وبالرغم من انها على يقين بأنها ستفوت تلك الفرصة، غير انها تمنت لهم الفرح والابتهاج.

«نعم، حسناً، قبّل أليسون بالنيابة عني، واخبر والدتي ووالدي بأني سأراهما غداً، اذا كانت الطريق خالية من الجليد، هذا كل شيء. فيما عدا ذلك، لا تقلقوا عليّ، لدي الكثير من البقالة في غرفة المؤونة.»

«سنتصل بك لاحقاً هذا المساء لنطمئن عليك.» وعدها بذلك، ثم اضاف: «وداعاً، شقيقتي، اكلمك بعد قليل، ولا تخرجي من المنزل لأي سبب من الأسباب، لا نريد ان يحصل لك أي مكروه.»

وعدت كاثلين شقيقها بعدم مغادرة المنزل، ثم اقفلت الهاتف. حسناً، ماذا عساها ان تفعل الآن؟ سألت نفسها.

اندفعت بسرعة وأمسكت بجهاز تحكم التلفاز ثم ادارت التلفزيون وظهر الإرصادي المحلي على الشاشة الذي كان يتابع العاصفة الجليدية بواسطة الرادار، وحسب معلوماته، تبين ان ليلة رديئة ستكون في الانتظار. كما أدركت كاثلين بأنها سوف لن تحبس في منزلها لليلة واحدة فقط. بل ستمر عدة ايام قبل ان يصبح بمقدورها مغادرة الجبل بسيارتها. ومثل هذا الأمر لم يكن خارجاً عن المألوف في جبال بوسطن المنحدرة.

وبتنهيدة المنهزمة، نهضت عن الكنبة ودخلت غرفة نومها، كان شعرها لايزال رطباً فقررت ان تجففه وتضع زينة خفيفة على وجهها وتلبس الثوب الذي اشترته لترتديه هذه الليلة. وبما ان ظاهر الأشياء كان يوحي بأنها ستقضي امسيتها بمفردها، كان لابد لها من ان تجعل من تلك الأمسية أمسية رائعة قدر الامكان.

لقد اعتبر روس دوغلاس الأمر اعجوبة لأنه استطاع ان

يقود شاحنته حتى كتف الطريق دون ان تنزلق إلى اسفل الوادي الضيق، وبما انه كان يبعد حوالي الخمسين ياردة عن الطريق المؤدية إلى منزله، اعتبر نفسه محظوظاً بحق، كان عليه ان يقطع المسافة المتبقية من الطريق، ومن ثم يعود للاهتمام بسيارته لاحقاً.

بعد ان وضع مفاتيحه في جيبه، اقفل سحابة معطفه الثقيل الذي كان يرتديه حتى رقبته، واعتمر قبعة وشدها على جبينه، ستكون رحلة قارسة وطويلة، وبينما كان ينزلق بخفة من شاحنته ليواجه الجليد والريح، اخذ يتعجب كيف انه ترك تكساس الجنوبية الدافئة ليقصد مكاناً مثل هذا!

حاول الصعود إلى منزله لكن الطريق كانت زلقة بشكل لا يصدق، حاول مرات عدة، خلالها زلقت قدماه واجبر على ان يتشبث بالأغصان والنباتات الجافة النامية على حافة الطريق كي لا ينزلق ثانية عن الجبل الملتوي والمنحدر، لم تمر أي سيارة بالقرب منه سواءً صعوداً أو نزولاً، افترض روس ان ما من أحد يمكنه أن يكون غبياً ليخرج من منزله في مثل هذا الطقس، وهو الآتي من سانت انطونيو حيث الدفء، وقد فاته الاستماع إلى نشرة الطقس الصباحية، وفي باله ان قليلاً من الثلج قد لا يشكل مشكلة كبيرة. لكنه في المرة التالية سيستمع حتماً!

استطاع الوصول إلى طريق اكثر انبساطاً، فمتابعة المضي فيها كان أكثر سهولة. أخذ روس يسرع الخطى، متعطشاً لدخول منزله الدافىء وليحظى بطعام العشاء، ولأن انطلاقه إلى فورت سميث كان في ساعة مبكرة من بعد الظهر، لم يخطر بباله ان يبقي ضوء الرواق منيراً، وتمنى

الآن ان يكون ضوء الغاز الضعيف المثبت في الفناء على مقربة من المدخل الأمامي للمنزل. لم يستطع ان يرى شيئاً البتة لكنه كان متمكناً من خطاه، وكان يحسب ان الرواق أيضاً يغطيه الجليد.

كان يبحث عن المفاتيح في جيبه عندما رأى شيئاً على الأرض قبالة الباب، مشى بحذر شديد فوجد انه صندوق يحتوي على شيء ما.

انه لم يترك صندوقاً في الرواق، هل يمكن ان يكون احد الجيران قد مر بالقرب من هنا؟ وترك شيئاً خاصاً به؟ تباً يا روس؟ حتى انك لم تتعرف على جيرانك بعد، راح يذكر نفسه.

مشى بحذر كي لا ينزلق، فتح الباب وأضاء المكان، ثم حمل الصندوق إلى داخل المنزل، ووضعه على طاولة المطبخ، من الواضح ان أحدهم أراد ان يقدم لي شيئاً ما، راوده هذا الظن بينما كان يخلع معطفه.

وإذ هو يفرك يديه ليبعث فيهما الدفء، التفت نحو الصندوق التفاتة حذرة. لقد كان مصنوعاً من الكرتون وحواشيه العليا مقفلة بترتيب. تردد في فتحه، قد يكون احد زملائه أراد ان يمازحه فترك هذا الصندوق الذي اذا ما فتحته سينفجر ببالونات وبأشياء مجنونة قد تملأ الغرفة.

لكن لا معنى لذلك كله، من ذا الذي يخرج في عاصفة جليدية، وخصوصاً على طريق جبلية ليقوم بمزحة عادية؟

لقد قرر وضع حد لفضوليته قبل ان يحضر لنفسه طعام العشاء، ففتح اطراف الصندوق ونظر إلى داخله. قطب روس جبينه وهو يتفحص قطعة قماش صوفية زرقاء هي

أشبه بمعطف، من يمكن ان يقدم له معطفاً؟ فقد مضى على انتقاله إلى اركنساس اسبوعان فقط. ولا أحد في الجوار يعرفه، باستثناء البعض في المدرسة في فورت سميث. همَّ بتناول المعطف من الصندوق، ثم توقف فجأة حين أزيحت طيات القماشة لتكشف عما يوجد تحتها.

إنه طفل! مولود حديثاً! كان المنظر مذهلاً، وغير متوقع، حتى ان روس بقي لثوان طويلة يحدق في هذا المخلوق الصغير، بوجهه الضعيف وشعره الأسود الخفيف.

هل هو على قيد الحياة؟ قذف المعطف جانباً ورفع الطفل من مكانه. كان الطفل ملتفاً بمنشفة غطتها بقع ناتجة عن الولادة، ولكي يشعر روس بالراحة التامة، اطلق الطفل صرخة قوية وتلوى بين ذراعيه.

كم مضى من الوقت وهو ملقى في الرواق يتعرض لدرجة حرارة جليدية متدنية؟ نصف الساعة؟ ساعة؟ لا يمكن ان يكون قد بقي لوقت طويل هناك، لأن الصندوق كان جافاً وخالياً من الثلج.

كان الطفل لايزال بين ذراعيه، ركض ناحية غرفة النوم حيث وضع الهاتف على الطاولة. آه، ثم وضع السماعة مكانها بعنف، قبل ان يرفعها حتى إلى أذنه. لم يكن الهاتف ذا فائدة وشركة الهاتف لم تقم على وصل خطه بعد. قد يحصل ذلك في الأسبوع القادم. فقد أخبروه ذلك. لكن الأسبوع القادم بالكاد يساعده الآن!

حسناً، هدىء من روعك يا روس، خاطب نفسه، لا ترتبك! فكر! ماذا ستفعل؟ من الواضح ان هذا الطفل بحاجة إلى عناية طبية، أو على الأقل لشخص يعرف كيف يهتم بطفل، وانت لا تعرف!

عندما التفت إلى وجه الطفل المتجعد، دب فيه الخوف، كان عليه القيام بعمل ما! لا بد ان الطفلة تعاني من ارتفاع في الحرارة! اعمل على ان تبقى دافئة! نعم، ودثرها بغطاء!

اسرع روس إلى غرفة النوم وانتشل قميص فانيلا وكنزة سميكة من الخزانة...

أخذ روس يزرع الغرفة جيئة وذهاباً باهتياج شديد، وقد حضن الطفلة بين ذراعيه وهي ملتفة بالقمصان. وفيما كان عقله يعمل في محاولة لإعداد ما يشبه خطة، اطلقت الطفلة صرخة عالية، وبحركة غريزية ضم روس المولودة الجديدة إلى صدره لتأخذ الدفء من حرارة جسمه.

أي نوع من البشر يكون هذا الشخص الذي استطاع ان يترك هذه الطفلة عند عتبة منزلي... لكانت قضت بسهولة بسبب ما تعرضت له من البرد القارس.

لا تهتم يا روس، خاطب نفسه على عجل. لديك المزيد من الاسئلة الملحة لتعالجها في هذه اللحظة، مثل كيف ستهبط بهذه الطفلة من الجبل لتسلمها إلى شخص يهتم بها بالشكل المناسب؟

لم يكن قادراً على المشي خمسة أو ستة اميال تحت المطر المتجمد، لم تكن هناك أية وسيلة أخرى للهبوط من الجبل، لم تكن هذه المنطقة مأهولة بالكثير من السكان، لكنها لم تكن أيضاً منعزلة، وعلى الرغم من ان طريق الولاية ٧١ لم تكن تبعد عن منزله اكثر من مئة ياردة، إلا انها كانت شديدة الانحدار وملتوية حتى انه كان يشك ان باستطاعة سيارة عادية أو شاحنة القيادة في مثل هذا الطقس.

يجب عدم تعريض هذه الطفلة الحديثة الولادة للبرد ثانية

بعدما عانت ما عانته. إذن، ما هو الحل؟ الجيران؟ هل بإمكانه صعود الجبل؟

لقد دفع هذا السؤال روس إلى ان يسرع إلى نافذة غرفة النوم. كان يدري ان ليس هناك من منازل على مقربة من منزله على الطريق المؤدية نزولاً من الجبل، لكن قد يوجد منزل ما على الطريق صعوداً.

مسح بيده على الزجاج وحدق من خلاله في المرجة امام المنزل وفي الطريق. ثم نظر عالياً نحو الغابات الكثيفة، ولمعت أنوار باهتة من خلال الأغصان وجذوع الاشجار، مما جعل روس يتنهد بارتياح. فالأنوار كانت تعني ان احدهم كان هناك وقد يقوم بمساعدته. مدد الطفلة حيث غطاها بمعطف، وغطاء للرأس وقفاز، ثم لفها بلحاف ثقيل وترك المنزل.

لقد حملت ريح الشمال العنيفة معها مزيجاً من الثلج والجليد، ووخز الجليد وجه روس الذي كاد يعميه، في حين كان الجليد الزلق تحت جزمته يجعل السير متعسراً، فيما كان قاصداً شاحنته.

ان حالة اليأس التي أحس بها روس جعلت كل ما في داخله يرغب في الهروب. لكنه اجبر نفسه على ان يزحف بأمان على الطريق، كان يدرك انه إذا ما وقع وكسر ساقه، سوف يموت مع الطفل من التعرض للبرد القارس.

لخيراً عندما وصل إلى الشاحنة، اكتشف ان مسكة الباب متجمدة، ضرب عليها بقبضته عدة مرات قبل ان ينكسر الجليد عنها مما يسمح للمزلاج بأن يفتح، كان يرتجف ومحبوس الأنفاس حين دخل مع الطفلة إلى داخل السيارة.

ليشتغل المحرك فقط، كان يأمل بذلك حين كان يحرك المفتاح في موضعه.

دار محرك الشاحنة بقوة، تنهد روس بارتياح وأدار جهاز الحرارة بكل طاقته، ثم ربط حزام الأمان حول الطفلة قدر الامكان. شيء واحد كان روس على يقين منه وهو انه في اللحظات القليلة الآتية ستكون القيادة صعبة.

حاول روس بشكل من الأشكال، ان ينزل بالشاحنة إلى الطريق العام، وبينما هو يعمل على ذلك، بدأت تنزلق على جانب الطريق، وكلما حاول تثبيتها لتبقى مستقيمة، كانت اطرها تغرز على الجليد من دون جدوى.

بعد عدة محاولات فاشلة للصعود إلى التلة، خفف من الدوس على دواسة البنزين، لكن النتيجة كانت مماثلة ومأساوية، بدأت الشاحنة تنزلق إلى الخلف، وبشكل مفاجيء داس روس على الفرامل، التي كانت عديمة الفائدة بسبب الثلج والجليد، واستمرت الشاحنة في الإنزلاق بسرعة كبيرة على الطريق المنحدرة والملتوية.

ولما رأى بأنهما كانا متجهين مباشرة نحو وهد عميق، اتخذ روس قراراً فورياً بأن يقبض على المقود ثم يحاول حشر الشاحنة في الخندق.

بعد ان اصطدمت السيارة ومن ثم توقفت، بقي روس للحظات طويلة، متشبثاً بالمقود، وراح يستنشق انفاساً طويلة مرتجفة، كان يرتجف خوفاً ليس على نفسه فحسب بل على الطفلة التي كانت محزمة وممددة على المقعد بجانبه. لكان اهلك نفسه واهلكها!

لم يبق امامه الآن سوى المشي، فقد لاحظ ذلك بعد ان

استعاد رشده. لقد تذكر تحذيرات بخصوص عدم ترك سيارة في عاصفة جليدية. لكنه كان يدرك انه لا يمكن البقاء هنا في شاحنة متجمدة ينتظر نجدة قد لا تأتي. ففي حالة كهذه، لا يمكن للطفلة ان تبقى على قيد الحياة، حتى انه لم يكن واثقاً من انه سينجو بنفسه.

كان الجليد يضرب على وجه روس وعينيه فيما كان يحاول جاهداً حمل الطفلة إلى الجبل باتجاه الأنوار الباهتة التي كانت تلمع من خلال الغابة الكثيفة. كان متأكداً ان وجهه قد تجمد وكذلك يداه ورجلاه. لم يشهد مثل هذا البرد في حياته، كان خائفاً ان يتصور مدى تأثير البرد على الطفلة، فقد كانت مربوطة بأمان بلحاف ثقيل لكنها سرعان ما تغطت بالثلج وفي وقت قريب تتسرب الرطوبة إلى ثنيات اللحاف الداخلية ومن ثم إلى الطفلة، كان عليه ان يسرع! عليه ألا يسمح بحصول أي شيء لهذه الطفلة الصغيرة التي كان يحملها بين ذراعيه.

• • •

علقت كاثلين قرطين في اذنيها، ثم وقفت امام مرآة طويلة، كانت ترتدي بنطلوناً فضفاضاً شتوياً أبيض اللون وكنزة كشمير تنسجم مع البنطلون، وقد تألقت احجار الراين على أعلى ثوبها وحول طرفي الكمين مانحة اللباس مظهر الاحتفال، اما شعرها فقد جف اخيراً واسترسل بنعومة حول وجهها وكتفيها. وتحت الخصل السوداء الفاحمة، تأرجح القرطان الغريبان بلمعان براق.

انها ليست بليلة سيئة في منزل العائلة القديم، امعنت

كاثلين التفكير ثم اطلقت ضحكة، واستدارت عن المرآة لتضيف اللمسة الأخيرة - زوجي لحذية فضيين بكعب عالٍ.

ليس هناك من أمر سيشعرها بالأسف على نفسها الليلة، هذا ما كانت تفكر به وهي تغادر غرفة نومها. انها أمسية العيد، وغداً تبدأ سنة جديدة، لقد أرادت كاثلين ان تكون هذه السنة مختلفة عن سابقتها اكثر من أي شيء آخر. وقد عزمت على ان تبدأها بتألق وابتسامة. حان الوقت كي تستمر بحياتها سواء كانت جيدة ام سيئة، كانت كاثلين على ثقة بأنها اخيراً اصبحت مستعدة لمواجهة المستقبل مرة أخرى.

كانت في المطبخ ترتب وجبة خفيفة على صينية عندما سمعت نقراً على الباب الأمامي. لم تستطع ان تتصور ان احداً قد يكون خارج منزله في ليلة كهذه. لكن قد يكون شقيقها قد عزم على الصعود إلى هنا. إذ يعرف عنه انه يقوم بأعمال مجنونة. هذا ما كان يساورها وهي تسرع لتفتح الباب.

وتوخياً للأمان، اضاءت الرواق، ثم نظرت من خلال ثقب الباب، لم يكن شقيقها هو الواقف في الخارج تحت الجليد، كان رجلاً يحمل بين ذراعيه رزمة تحتوي على شيء ما.

فتحت الباب قدر ما سمح به قفل الباب الخاص بالأمان وقالت: «هل يمكنني مساعدتك؟»

كان وجه روس قاسياً جداً ولم يكن واثقاً انه قادر على تحريك شفتيه ليتكلم: «أنا روس دوغلاس.» تابع بعد لحظة: «اسكن على بعد منكم في قعر الجبل.»

استمرت كاثلين في تفحص وجهه أو ما استطاعت ان ترى منه تحت قلنسوة معطفه الرمادي، هل يمكن ان يكون هو الشخص الذي اشترى مبنى مابري القديم مؤخراً، فقد

مرت بالقرب منه منذ يومين ولاحظت بشكل غير واضح، احدهم يتحرك في داخله.

«هل تواجه أية مشكلة؟ هل تحطمت سيارتك على الجليد؟»

نفد صبر روس. من اسئلتها، ألم تر انه يتجمد من البرد؟ والطفلة تتجمد! لم هي حريصة إلى هذا الحد؟ هنا ليست هيوستن أو حتى نيويورك!

«كلا، سيدتي، احتاج مساعدتك. هاتف. لدي طفلة هنا...»

«طفلة!» لهثت كاثلين. وبسرعة فتحت الباب. وهي تقول: «تفضل بالدخول.» حثته على الدخول دافعة بالباب المعدني بقوة.

خطى روس نحوها إلى داخل الغرفة الدافئة. لقد قضى نصف ساعة على الأقل ليصل إلى هذا المنزل، اذ انه كان يشق طريقه على مهل صعوداً من الجهة الوعرة للجبل. لم يلمح أية سيارة، وقبل ان تفتح هذه المرأة الباب، بدأ يشعر وكأنه هو والطفل اثنان من البشر فقط تركا على وجه الأرض.

أغلقت كاثلين الباب بقوة في وجه الريح الجليدية، ثم دارت باضطراب نحو الرجل الذي خطا إلى وسط الغرفة، وهو لايزال حاملاً تلك الرزمة بين ذراعيه. سألت بسرعة: «هل أصاب الطفلة أي مكروه؟ هل استدعي الاسعاف؟»

اصطكت اسنانه بقوة وهو يقول: «سيدتي سيارة الاسعاف لا يمكن ان تصعد إلى هنا!» التفت إلى الطفلة فيما كان يزيح عنها اللحاف. «عدا عن ذلك، لا أعلم ان كانت

الطفلة بخير أو انها تحتاج إلى عناية! انها ولدت حديثاً!»

بذهول نظرت كاثلين إليه بغباوة، هل الرجل مجنون؟ ام ان انخفاض الحرارة قد جعلت افكاره غير مترابطة! اندفعت نحوهما، قائلة: «ماذا تعني لا تعرف؟ أليست طفلتك؟» لفت انتباه كاثلين كثافة شعر الطفلة وقلة صراخها. وثب قلبها عندما تطلعت إلى الطفلة الملتفة بكنزة تفوق حجمها بكثير.

التفت روس إلى كاثلين، لكنه كان شديد الاضطراب لدرجة ان الشيء الوحيد الذي علق في تفكيره وجه جميل وشعر أسود طويل. أجابها: «كلا، انها ليست لي، لقد تخلى عنها احدهم ولا اعرف لمن تكون؟ فقط استدعي احداً.»

دفع الارتباك الذي خيم على صوته بكاثلين ان تسرع إلى الهاتف لم تكن تعلم بالضبط ماذا تفعل إلى أن رفعت سماعة الهاتف. «ماذا... بمن تتصل؟ ليس لدينا هنا خدمة اسعاف!»

رمى روس اللحاف الذي غطاه الثلج على الأرض، ثم تلفت بيأس في انحاء الغرفة ليجد شيئاً يستعمله كلحاف.

«اتصلي بالمستشفى وبالتأكيد فإن شخصاً ما هناك يمكنه ان يعلمنا ما يجب ان نفعله لها!»

وجد بطانية على مقعد الكنبة. فانتشله بسرعة ولفه حول الطفلة ثم حملها إلى جانب المدفأة حيث كانت النار تتوهج ببطء.

كانت يدا كاثلين ترتجفان وهي تضغط بقوة على رقم اقرب مستشفى، ثم أمسكت بورقة وقلم كانت تحتفظ بهما دائماً بجانب الهاتف.

«احتاج لمساعدة!» اجابت بذهول عندما خاطبها صوت أنثى، ثم توقفت عندما غمرتها فجأة موجة من الخوف.

«نعم، أنا لم أزل هنا.» تابعت محاولة ان تستجمع نفسها: «أنا، آه، لدينا حالة طارئة ولادة طفل هنا و... آه... لا... لا.. لا توجد الأم.» بدت مجنونة! «أعني... يوجد لكن الطفلة وجدت في العراء في الصقيع و...» توقفت وتنفست تنفساً عميقاً. «نعم، نعم، انت على حق، لو تستطيعين فقط إعطاء بعض التعليمات... ماذا نفعل لها إلى حين نؤمن لها تسهيلات طبيعية، ماذا؟ نعم، سأنتظر.»

ضربت كاثلين بيدها على سماعة الهاتف ثم نظرت إلى الرجل والطفلة وقالت: «لقد حولوني إلى قسم اطباء للاطفال، أرادوا ان يعرفوا شيئاً عن الأم، أين هي؟»

«كيف لي ان اعلم! هذه الطفلة كانت في الرواق الأمامي عندما وصلت إلى المنزل، وهذا كل ما استطيع ان اخبرك به!»

الفصل الثاني

كان روس يزرع خطواته ذهاباً وإياباً، أمام الموقد، في الوقت الذي كانت كاثلين قد انهت مكالمتها الهاتفية.

«ماذا سنفعل الآن؟ ماذا قالوا؟» راح روس يمطرها بوابل من الأسئلة في حين بدأت الطفلة بالصراخ.

مزقت كاثلين ورقة من دفتر الهاتف وتقدمت بسرعة من الرجل الغريب والطفلة، وهي تقول: «لدي كل شيء هنا.» ولوحت له بالورقة. «لقد صدف ان طبيباً للأطفال كان يقوم بجولته على مرضاه، وهكذا تمكنت من التحدث اليه. قال بأنه علينا ان نعالج الأمر خطوة خطوة، وسيكون كل شيء على مايرام.»

«حسناً، ما الذي يعرفه؟ انه لا يعرف ان هذه الطفلة كانت مرمية على الأرض وتعرضت لعاصفة جليدية!»

وفجأة ارتفع حاجبا كاثلين عالياً، انها لم تهتم لتصرف هذا الرجل، ولو لذرة، نعم، انه يعلم ذلك، فقد اخبرته. إذن، لم هي تبكي؟

كان صراخ الطفلة يعلو مع كل ثانية تمر، وقد طغى على صوتيهما: «لا أعلم، لم يكن لدي طفل!»

تمتم باشمئزاز: «لقد وجدت امرأة ولم أجد أماً!»

لولا ان الأمر يتعلق بالطفلة، لطردته كاثلين من منزلها على الفور. «اني لا اسمح لأناس اعرفهم بأن يصرخوا في وجهي، يا سيد، فكيف بالأحرى لأناس لست على

www.elromancia.com

معرفة بهم. وليس كل راشد يكون أباً أو أماً، هل أنت والد؟»

هز روس برأسه، خجلاً من انه سمح لعاطفته بأن تتغلب عليه. «كلا، أنا لست والداً، وأعتذر عن الصراخ عالياً. لكنني قد جن جنوني منذ اللحظة التي وجدتها في الرواق.» قال ذلك وهو يحدق في الطفلة وهي تصرخ بين ذراعيه.

بسرعة اقتربت كاثلين منها. «سوف نقوم بالاهتمام بها.» قالت ذلك محاولة ما استطاعت ان تبدو مطمئنة.

ساور كاثلين شعور بأن الطفلة اصبحت جزءاً منه. وكأنها وبطريقة غريبة قد اصبحت ابنته. وليست مجرد طفلة وجدها في صندوق كرتون.

قالت كاثلين لاهثة وهي تنقل الطفلة إلى الأريكة: «لم تكن تمزح؟ أليس كذلك؟ انها حقاً طفلة حديثة الولادة.»

تبعها روس بوجه ذابل من القلق. وأجابها: «لا أدري بالتأكيد، ولكنها بدت وكأنها ولدت منذ ساعات قليلة.»

تابعت تخاطبه: «أدعى كاثلين غلاغر هاين، ما اسمك أنت؟»

مد يده مصافحاً: «أنا روس دوغلاس.»

مدت هي يدها وللحظة قصيرة اطبق باصابعه حول اصابعها، وقد شعرت باصابعه وكأنها قد تجلدت، ثم تنكرت على الفور ان هذا الرجل كان قد قام برحلته إلى الجبل وسط عاصفة جليدية، قالت له: «انك تتجمد! كم من الوقت استغرقت رحلتك إلى هنا؟»

هز كتفيه وفتح سحابة معطفه قائلاً: «لست متأكداً، بدت الرحلة وكأن لا نهاية لها.»

أومأت كاثلين برأسها باتجاه الموقد، قائلة: «ان أردت ان توقد النار، قد يساعدك ذلك على ان تنعم ببعض الدفء أنت والطفلة.» ثم استدارت ناحية الطفلة وشعرك بارتباك على الرغم من تحذير طبيب الاطفال لها بأن تلزم الهدوء وتستجمع قواها وهي تعالج أمر الطفلة، وتابعت: «لقد أوصى الطبيب بأن نتأكد من أنها تتنفس من دون أي صعوبة، كأن تصفر أو تسعل.»

«كيف لنا أن نعرف ذلك؟»

اجابته: «قال انها في حال كانت تصرخ براحة، يكون تنفسها مرتاحاً.»

«حسناً، انها من دون ريب، تبدو على هذا النحو، إذن ما هو الأمر التالي؟»

«علينا ان نقوم بفحص حرارتها، حسب ما قاله الطبيب، إذ يجب ان تكون حين نتحسسها دافئة لا ساخنة، وان تكون بشرتها حمراء زهرية وليس رمادية أو زرقاء، كيف تبدو لك؟»

عاد روس إلى الطفلة بعد ان دس حطبتين في الموقد. وقال: «حسناً، انها لا تبدو زرقاء اللون، لكن وجهها احمر.» وحسب ما تصورت كاثلين كان ذلك بسبب الصراخ، وحيث انها ليست بأم، لم تكن متأكدة من هذا الأمر، لامست كاثلين بيديها ذراعي الطفلة وساقيها ثم ذهبت لتبحث عن ميزان للحرارة.

تركت الغرفة بسرعة، تاركة روس ليراقب الطفلة التي حاول تهدئتها بكلمات ملطفة، لكنها لم تهتم لنبرة صوته واستمرت في الصراخ. ولأن روس كان مضطرباً فانه لم

يستطع اسكاتها، فما كان منه إلا ان تناولها وحضنها بين ذراعيه. وبدا انها عندما لامست كتفه هدأت بعض الشيء، ورويداً انقلب صراخها إلى تململ خفيف.

تنهد روس تنهداً عميقاً وداعب بيده شعره الرطب الذي استرسل على جبينه. كان رجلاً يعمل مع الأولاد كل يوم، لكنهم كانوا مراهقين، وكانوا يزنون أكثر من بضعة أرطال، يستطيعون هضم أي نوع من الطعام ويتواصلون بأساليبهم الغريبة الخاصة بهم، لم يكن المراهقون مثل هذه الطفلة الصغيرة التي كانت بين ذراعيه.

عادت كاثلين مسرعة إلى الغرفة وبيدها ميزان الحرارة، وهي تقول: «ليس لدي ميزاناً مخصصاً للأطفال، لكن الطبيب قال ان باستطاعتنا استعمال اسلوب القياس تحت الإبط في مثل هذه الحالة.»

تنهد روس وكاثلين بارتياح عندما قاما بقياس حرارة الطفلة، وظهرت انها طبيعية.

«حسناً، لقد علمنا انها لا تعاني من ارتفاع في حرارتها، بات علينا ان ننظفها ونطعمها.» قالت كاثلين ذلك وهي تلقي نظرة خاطفة على ملاحظات دونتها على عجل اثناء تحدثها إلى الطبيب.

سألها: «هل تعرفين كيف تقومين بذلك؟»

استطاعت كاثلين ان تسمع نبرة يأس في صوته، إذ انها كانت تشعر باليأس نفسه، لكنها كانت تدرك ان الاستسلام لهذا اليأس لن يجديهما نفعاً، إذ بات عليها وعلى هذا الرجل، الآن ان يبذلا قصارى جهدهما، ويأملان ان في ذلك كفاية.

«سأعطي كل ما عندي.» اجابت بثقة تفوق ما كانت تشعر به.

نظر روس إليها بأمل وسألها: «هل سبق ان اهتممت بالاطفال؟ أو عملت كحاضنة؟» فكرت، ان صفاً من ٢٥ تلميذاً كان يشعرها احياناً بأنها حاضنة، اجابت: «نعم، لكن ليس لطفلة كهذه!»

«وأنا لم اكن أيضاً، كانوا جميعهم... أكبر منها حجماً.»

اعادت كاثلين النظر إليه وأحست برجفة خفيفة تسري في مكان ما من قلبها، فقد كان روس دوغلاس أسمر، قوياً، ويمتلىء رجولة.

لونت الفكرة خديها فيما كانت تجيب: «حسناً، اعتقد ان لدي بعض الكتب التي قد تساعدنا.»

«كتب.» أخذ روس يهمهم بصوت لم تستطع كاثلين هايز سماعه حين كانت تغادر الغرفة.

وماذا بعد هذه الكتب، أخذ يخاطب نفسه، انها امرأة ناضجة، عليها ان تكون ملمة بشؤون الأطفال. من المفترض ان تمتلك النساء ذاك الحس الداخلي الذي يعمل لا شعورياً إذا ما رزقن بطفل.

لكن لم يكن لكاثلين طفل، شرع يذكر نفسه، لذا ليس باستطاعته ان يلومها ان لم تمتلك الخبرة، انه لم يشعر في حياته كلها بالعجز الذي هو فيه الآن، كان يدري انه غير منطقي في تفكيره وحاول تهدئة نفسه، كما انه لم يكن من المنطق ان يفرغ غضبه وكبته على هذه المرأة. نظر إلى الطفلة ثم اومأ برأسه، وقال: «لا عليك، ايتها الفتاة الصغيرة، سأبذل جهدي كي لا يحصل شيء لك.»

باضطراب شديد، ألقت كاثلين نظرة على صف من الكتب، وحين وجدت العناوين التي تبحث عنها، انزلت الكتب عن الرفوف وأسرعت بها إلى غرفة الجلوس.

كان روس دوغلاس لايزال قرب الموقد والطفلة بين ذراعيه. فكرت وهي تتأمله، انه لم يكن لديه طفل، لكنه لم يمسك الطفل بشكل اخرق كما يفعل الرجال عندما يتعاملون مع اطفالهم لأول مرة.

قادت تلك الملاحظة افكارها نحو خطوة ابعد... ما اذا كان لهذا الرجل زوجة. يبدو انه في أواخر العشرين، وهو بالتأكيد عمر يستقر فيه معظم الرجال ليقوموا بدور الزوج. لكن لم يبد عليه مظهر الارتباط الذي عادة يملكه الرجال المتزوجون.

في الوقت الحاضر، اكان روس دوغلاس مرتبطاً، أو غير مرتبط هو أمر بالكاد يكون مهماً، هكذا راحت تخاطب نفسها، وهي تنضم اليه عند الموقد. لديهما الآن طفل يحتاج لعنايتهما.

«ان هذا الكتاب الذي يتحدث عن الولادة وكيفية الاعتناء بالطفل قد يطلعنا على بضعة اشياء.» قالت ذلك وهي تقلب صفحاته بسرعة. فقد اشترت الكتاب عندما كانت تخطط مع غريغ لإنشاء عائلة. ولسوء الحظ لم تسنح لها الفرصة بأن تستعمله. بسبب مقتل غريغ. قالت: «من الواضح ان الطفلة بحاجة لاغتسال.»

بدا روس بملامح متجهمة، وهو يقول: «ما يشغل بالي في هذه اللحظة، هو انني أريدها ان تأكل!»

رمقته كاثلين بنظرة جانبية وهي تقول: «وهذا لسان

حالي، يا سيد دوغلاس، لكن لا يمكن ان نعطيها حليب بقر عادي!»

«لم لا؟»

اجابت كاثلين رداً على سؤاله الساذج: «لأن هضمه صعب، فالأطفال لا يشربون ذلك النوع من الحليب. الطبيب اعطاني وصفة غذاء بديل عن الحليب، استطيع مزجها لحين تنتهي العاصفة حيث يمكننا النزول إلى المدينة.»

بدأت الطفلة تبكي من جديد، وأخذ روس يهزها بلطف، محاولاً تهدئتها. «حتى لو عرفت الغذاء الذي ستقدمينه لها، بأي طريقة ستعطيها إياه؟ هل لديك زجاجة اطفال هنا؟»

تجاهلت كاثلين اسئلته واستمرت في القراءة، أراد روس أن يصرخ بقوة، فهو رجل ديناميكي وانتظاره ريثما تنتهي كاثلين من تثقيف نفسها حول أمور الاطفال كان أمراً يثير جنونه.

أخيراً التفتت إليه وأجابته: «ماذا؟ زجاجة؟ آه، نعم، اظن ان لدي واحدة، إحدى صديقاتي لديها طفلة وقد تركت زجاجة هنا منذ فترة.» أومأت إليه بأن يتبعها إلى خارج الغرفة. «تعال، سنأخذها إلى المطبخ وسأبدأ بجمع الأشياء مع بعضها البعض.»

مشى روس خلفها وعيناه تشعان بينما كان ينقلهما بين كاثلين والغرف الكبيرة التي كانا يمران فيها، فالمنزل كان يظهر عليه مظهر الترف مقارنة مع المكان الذي انتقل لتوه إليه. فقد فرش بأثاث حديث غالي الثمن، وبسجاد سميك وستائر كانت تكشف عن النوافذ اكثر مما تغطيها، وقد ازدانت الجدران بلوحات زيتية، في حين ان قطعاً فنية

رقيقة الصنع، ونباتات وضعت في احواض فخارية، استقرت هنا وهناك في اماكن اختيرت لها بدقة، ومع ذلك، فالمنزل بالنسبة لكاثلين غلاغر هايز لم يكن يحتوي شمعة، هذا ما أدركه روس.

في وقت مضى، وعندما شرع بالصعود إلى الجبل مع الطفلة، تمنى أن يجد امرأة في هذا المنزل، حسناً ها قد وجد امرأة مناسبة، اطرق مفكراً، لكن هل كانت تلك المرأة التي تمناها كي يجدها؟

سألها: «هل كنت تعدين نفسك للخروج من المنزل الليلة؟» بالتأكيد، لم تكن لترتدي رداءً كالذي ترتديه الآن لو انها باقية في المنزل.

«نعم، كنت ذاهبة إلى بيت عائلتي، فنحن نحتفل بخطوبة شقيقي الليلة. كنت اتحضر للذهاب عندما بدأ الجليد يتراكم.»

ثم عادت وحدقت به من أعلى كتفها مبتسمة، وقد بهرته بذاك التحول المفاجيء في ملامحها، ثم راحت تسأله: «وماذا عنك أنت؟ هل كنت تتحضر للاحتفال أيضاً؟»

أوما برأسه نافياً: «كلا، لازلت قيد الانتقال إلى المنزل الجديد. كنت سأفرغ محتويات الصناديق.» ثم التفت إلى الفتاة بين ذراعيه، لم يزل الأمر صعباً عليه ليصدق أن كل ذلك كان يحصل له.

هتفت كاثلين: «شكراً لأنك فعلت ذلك! لا اتحمل مجرد التفكير بأن الطفلة كانت في الصقيع، هل لديك أدنى فكرة كم من الوقت بقيت هناك؟»

دخلت المطبخ واضاءت الضوء القائم فوق رأسها،

وتبعها روس إلى حيث توجد طاولة صغيرة، وقال: «ليس تماماً، لقد قدت سيارتي إلى فورت سميث قبل الظهيرة بوقت قليل ولم اعد إلا عندما ضربت العاصفة. من الممكن انها كانت قد تركت هناك في أي وقت أثناء فترة ما بعد الظهر.»

إرتعشت كاثلين للفكرة: «حسناً، سيكون الأمر رهناً بالسلطات لتكشف الفاعل.. لكن دعنا نهتم بها أولاً قبل ان نزعج أنفسنا باستدعاء عمدة البلدة أو أي شخص كان، هل أنت موافق؟»

اوما روس برأسه موافقاً، وقال: «نعم موافق! وعلاوة على ذلك، فالسلطة المحلية لن تستطيع الوصول إلى هنا، ونحن بالتأكيد، لا يمكننا ان نخرجها الليلة على الأقل. حتى وان استطعنا، فأنا اعتقد انه لا يناسبها ان تتعرض ثانية للصقيع. فالطقس في الخارج لا يلائم انساناً ولا حيواناً. فكيف بالأحرى طفلة حديثة الولادة.»

«أنت على صواب، سنعمل كل ما في وسعنا لحين يصبح بمقدورنا ان نوصلها إلى المدينة.»

قال، وعيناه مسمرتان على الطفلة: «اعتقد ان علينا ان نقوم بدوري الأم والأب لها الآن.»

لم يكن يعرف روس دوغلاس مدى تأثير كلماته فيها، كما لم يكن يدري كم من مرة تمنت كاثلين كي تصبح والدة وكم حزنت في داخلها عندما أدركت انها غير قادرة على الإنجاب، والآن فجأة، اصبح لديها طفلة بحاجة لرعايتها.

نظرت كاثلين نظرة خاطفة إلى روس والطفلة بينما كانت تحاول ان تفهم معنى تلك العواطف الغريبة الجياشة التي كانت تضطرب في داخلها، قالت بصوت أبح: «حسناً إذا

كنت موافقاً على حملها، سأذهب لآتي بما نحتاجه لغسلها.»

استدارت كاتلين وابتعدت عنه خطوة عندما قال: «اعتقدت اننا سنطعمها أولاً.»

عادت اليه وخاطبته: «سنطعمها، يا سيد دوغلاس، عليك فقط ان تهدأ وتفكر في الأمر، ستجد انها بحاجة للاستحمام قبل أن تأكل.»

اخذ روس يراقب أحجار الراين وهي تلمع في اذنيها، لقد أدرك ان هذه المرأة هي أبعد ما يمكن عن ان تكون والدة.

سألها: «آه، وكيف توصلت إلى هذا الاستنتاج، أهذا ما اوصاك به الطبيب؟»

استنشقت نفساً طويلاً وعميقاً وقالت: «لم يقل ذلك، فقط اعطاني تعليمات حول طريقة غسلها واطعامها، لكن لدي ما يكفي من الفطنة لأعرف انها متى أكلت، فانها حتماً ستنام، وستنزعج إن هي لم تستحم.»

«انظري يا آنسة هايز، كما اخبرتك منذ دقيقة، لا أدري كم من الوقت بقيت هذه الطفلة في رواقي، ومن المؤكد اني لا أدري منذ متى ولدت، وقد يكون ذلك منذ ساعات وساعات، قد تكون المخلوقة الصغيرة تتضور جوعاً الآن!»

اختفى إحباط كاتلين مدبراً، إذ راحت تراقب يده الأخرى ترتفع لتحضن الطفلة بحركة وقائية كاملة.

كيف يمكنها ألا تتأثر بحنانه الواضح؟

اجتازت خطوات قليلة كانت تفصل بينهما، وبلطف مررت أصابعها على رأس الطفلة، وقالت: «يا سيد دوغلاس، إني امرأة بما يكفي لأدرك ان حليب الوالدة ليس دائماً متوفراً

فور ولادة الطفل. احياناً يستغرق الأمر عدة ساعات قبل ان يتقبل الطفل الحليب.»

وبالرغم من ان وجهها كان محنياً فوق وجه الطفل، استطاع روس ان يرى توردا ينتشر على خديها، من الواضح انها كانت منزعجة وهي تناقش اشياء اساسية كهذه، مع رجل. وهو كان يشعر أيضاً بالانزعاج مما توصلا إليه من نقاش، ليس لأنها قد تحدته، لكن لأنها اخبرته أنه ولو كان في التاسعة والعشرين من عمره، فهناك أمور يجهلها عن المرأة، خاصة ما يتعلق بالولادة.

«حسناً يا روس، انت لم تقل أبداً انك على دراية بكل شيء، أليس كذلك؟»

بقيت كاتلين منتظرة منه ان يقول شيئاً ما، وعندما لم يتكلم، رفعت نظرها نحوه وعلى الفور احست بشعور غريب في داخلها. كانت تعتقد ان الرمادي لون يفترض ان يكون بارداً، لكن عيني دوغلاس كانتا توحيان بأي شيء باستثناء انهما باردتان. «سيد دوغلاس.» بدأت بالكلام، ثم توقفت عندما هز برأسه، ثم قال: «روس سيدتي. اتصور اننا يجب ان نتفق على التسمية على أساس الاسم الأول.»

فجأة بدأت ترتعش ولم تدر السبب، لم يكن بسبب صوته، أو النظرة الدافئة في عينيه، أو لأنه ارادها ان تناديه بروس. كان شيئاً ما في داخلها. شيء اعتقدت انه مات مع موت زوجها. لكن دنو هذا الرجل منها، رائحته، نظرته القاسية كانت تحثها على العودة إلى الحياة.

«حسناً، يا روس.» قالت وهي تبتعد عنه خطوة في حين كانت تحاول ان تبتسم له ابتسامة عرضية. «من الأفضل ان

احضر اغراض الطفل.» هذه المرة لم تنتظر كاثلين موافقته. فاستدارت وغادرت الغرفة.

كان روس يراقبها وهي تغادر الغرفة، وينظر إلى تمايل شعرها وهي تحرك رأسها. واطرق مفكراً، لم يستطع ان يتذكر انه رأى في حياته امرأة ذات بشرة بيضاء عاجية كبشرتها وعينين خضراوين هما اقرب إلى اللون البني، وشعر لونه بلون منتصف الليل، لقد تعثر بزهرة إيرلندية في وسط عاصفة جليدية.

الفصل الثالث

بعد خمس دقائق، عادت كاثلين إلى المطبخ تحمل ملء ذراعيها حرامات ومناشف، صنعت منها وسادة وضعتها على طاولة المطبخ، ثم اسرعت تحضر ماءً فاترة وصابوناً ملطفاً. وبينما كانت تتحرك بسرعة في الغرفة، كان روس يقيس الغرفة من طرف إلى آخر. كان يجهل أنه مجرد ان يكون للمرء طفل، سيجعله عاجزاً، ومهما تكن الظروف ضاغطة في الوقت الذي وجدت فيه هذه الطفلة، فقد كان يشعر بمسؤولية تجاهها في هذه اللحظة، كما لو كانت طفلته حقيقة.

«حسناً، اظن ان كل شيء جاهز، ضعها على الحرام.» أشارت كاثلين اليه، ومجرد انه وضع روس الطفلة على الوسادة، حتى بدأت بالصراخ واحمر وجهها غضباً، وراحت تلوّح بشدة بذراعيها الصغيرتين على جانبيها.

«هل هي دافئة بما يكفي؟ ماذا اصابها؟» سأل كاثلين وهو يحدّق في الطفلة عاجزاً.

بالكاد استطاعت كاثلين ان تسمع سؤاله، إذ انها كانت تسحب البطانية وتتفحص الطفلة، وساورها الظن بأن روس دوغلاس كان على حق عندما قال انها انجبت منذ ساعات فقط. أرادت كاثلين ان تنفجر بالبكاء من الطريقة المحزنة التي استقبلت بها هذه الطفلة في الحياة.

www.liilas-romancia.com

لم تدرك انها كانت تبكي، لكن ذلك حصل لأن روس دوغلاس فجأة أخذ يربت على كتفها.

«ما الأمر؟ هل أنت تبكين أيضاً؟»

وبغصة، هزت رأسها بسرعة قائلة: «لا يمكنني تحمل رؤية ما جرى لهذه الطفلة الغالية، فقد رميت كأي خرقة قديمة بالية غير مرغوب فيها.» ثم مدت يدها ومسحت الدموع التي انهمرت على خديها. «كيف يستطيع انسان ان يقوم بأمر كهذا؟ كيف حصل ذلك؟»

كان روس يدرك تماماً ما كانت تشعر به هذه المرأة، فقد ساوره نفس الشعور عندما قام بسحب الطفلة من الصندوق، كان يضغط بيده على كتفها وهو يقول: «قد تكون تستحق والدين يحبانها حباً حقيقياً.»

كان على كاثلين ان تصدق ما قاله: «نعم، أنت على حق، وهي في عهدتنا الآن. هذا ما يهم.» وبعزم متجدد، قامت كاثلين لتغسل الطفلة، وفيما كان أثر الأوساخ يختفي عنها، كانت دموع كاثلين تختفي أيضاً، ان هذه الطفلة محبوبة، راحت تخاطب نفسها بقوة. لأنها قد أحبتها.

انها لاتزال تبكي، قال روس، بينما كانت كاثلين مستمرة في غسل وشطف شعر الطفلة الداكن.

منذ اللحظة التي مدّت فيها كاثلين الطفلة على الطاولة، كان روس قد اتخذ موضعاً ليكون قريباً من كتفها الأيسر.

وحاولت كاثلين ان تغض الطرف عن وجوده بالقرب منها طيلة الوقت الذي استغرقه غسل الطفلة، لكن الأمر صعباً لأنه كان قريباً جداً منها، حتى انها كانت تشعر بحرارة جسمه.

«حسب تعليمات الطبيب، تبدو على ما يرام، كما تبدو رئتاها معافيتان، وهذا أمر جيد.»

«لكن ليس من الصالح لها أن تبكي على هذا النحو.» قال روس ذلك بانفعال.

اوضحت له قائلة: «ما استطيع تذكره عن والدتي، ان هذا الأمر طبيعي، كانت تقول أن شقيقي نك بقي يصرخ طيلة الأشهر الثلاثة الأولى من عمره بسبب مغص في معدته. ثم عاد فتعافى... انه لأمر مقرف.»

كان يراقبها وهي على وشك ان تنتهي من غسل الطفلة من رأسها وحتى أخمص قدميها، ثم قامت بتجفيف جسمها باهتمام فائق.

لقد بدا عليها انها تتدبر أمر الطفلة بثقة، وهذا أمر صعب بالنسبة لشخص لم يكن لديه طفل من قبل.

«لا اعتقد انك تحتفظين بحفاضات هنا، ماذا سنستعمل؟»

ابتسمت كاثلين ابتسامة خفيفة وقالت: «ستقوم بصنع بعض منها في الوقت الذي أكون فيه أمزج وصفة الغذاء.»

حدّق بها مندهشاً، وأجاب: «أنا؟ لا استطيع صنع حفاض، بالكاد أعرف كيف أضعه لطفل، فكيف حري بي أن اصنع واحداً!»

لو لم يكن صراخ الطفلة مزعجاً إلى حد كبير، لكانت ضحكت لنظرة الإرتباك التي ارتسمت على وجهه، كيف يستطيع الرجال مواجهة عدوهم في المعركة بشجاعة، في حين يفرون على اعقابهم عندما تواجههم مسألة الاهتمام بطفل حديث الولادة!

«بالتأكيد، قد لا يكون الأمر صعباً إلى هذا الحد.» قالت مؤكدة له ذلك. «عندما ذهبت لآتي بالحرامات، وجدت شرشفاً أبيض. تستطيع ان تقصه إلى مربعات كبيرة في حين احضر لها أنا زجاجة من الحليب.»

ان روس مستعد لأن يفعل أي شيء ليرى زجاجة حليب في فم الطفلة. وقد شعر إلى حد ما بذلك الشعور عندما رآها تأكل. فقد اطمأن عليها... انها حقاً بخير.

احضرت كاثلين شرشفاً ومقصاً وقصت له نموذجاً عن حفاض. وبينما كان يصنع الحفاضات، وضعت كاثلين منشفة يد سميكة حول الطفلة وثبتتها بدبوس لفترة مؤقتة، ثم لفّت الطفلة بغطاء فضفاض.

«انها تبدو جميلة.» قالت كاثلين بصوت ناعم، وهي تضع زيتاً خاصاً بالاطفال على رؤوس اصابعها وتمسح به شعر الطفلة الأسود.

«اتدرين، كلما فكرت بالمسألة كلها، كلما تساءلت أي نوع من النساء تكون تلك المرأة التي تنجب، ثم تترك طفلها مع شخص غريب.» قال روس ذلك بقلق غاضب.

نظرت كاثلين اليه وقالت، بعد ان ارتسم على وجهها تعبير ينم عن اهتمام: «ربما لم يكن شخصاً غريباً، ربما كان شخصاً يعرفك.»

بحركة من رأسه يشوبها الشك، لم يوافق على ما قدمته من اقتراح. «لقد مضى على انتقالي إلى هنا اسبوعان فقط، والاشخاص الوحيدون الذين اعرفهم هم من سأعمل معهم.»

«في أي مكان؟»

«في فورت سميث، انا مدرب بايسبول للصفوف الثانوية واستاذ تاريخ.»

إذن، روس دوغلاس استاذ، اطرقت تفكر بفضولية، بالتأكيد يناسبه دور المدرب، لكن من الصعب تخيل هذا الرجل يحاضر في مادة التاريخ، امام مجموعة من الطلاب الثانويين.

قالت معلقة: «انه وقت غريب من السنة، تحصل فيه على مهنة تعليم.»

«ليس بالتأكيد، انها فترة بين فصلين، لكن لو أني اعرف احداً يجعلني أبقى هنا...» رفع كتفيه ثم انزلهما، محاولاً أن يخبرها بأنه وحيد مثلها. «لا اعرف أحداً هنا أو في تكساس بامكانه القيام بعمل كهذا.»

سألته باهتمام: «إذن اعتقد ان اختيارك لمنزلك كان اختياراً عشوائياً.»

التفت روس إلى الطفلة وقد بدت وكأنها تحاول ان تنام من جديد، لقد أراحه ان صراخه توقف أخيراً، ومهما قالت كاثلين هايز عن أن صراخها أمر طبيعي، فانه لم يكن يرغب في ان تصرخ الطفلة، فذلك يعني ان أمراً ما قد حصل لها.

«لكن لماذا؟» أخذ يتساءل بصوت عالٍ: «لم اختار منزلي؟» هزت كاثلين رأسها بحزن بينما كانت تستدير ناحية الخزائن وراءها وقالت: «الناس يفعلون أشياء غريبة لأسباب غريبة، اظن ان والدة الطفلة جداً يائسة الآن.»

«ما الذي يدفعك على التفكير انها الوالدة؟ قد يكون والد الطفلة هو من وضعها في رواقي.»

مد روس يده، وراحت كاثلين تراقب اصابعه وهي تربت بلطف على خد الطفلة الناعم، كان ذا يدين كبيرتين وكفين غليظتين واصابع طويلة، اما بشرته فكانت شديدة السمرة مقارنة مع بشرة الطفلة المحمرة، وقد تبدو اكثر سمرة إذا ما قورنت ببشرة كاثلين البيضاء.

تساءلت بيأس، ان هذا الرجل غريب! وفي هذه اللحظة بالذات، ينبغي ان تفكر بالطفلة فقط.

اطرق روس مفكراً، وقال: «اعتقد أننا سنكشف عن الحقيقة في وقت قريب.

استدارت كاثلين نحو الخزائن لتبحث عن زجاجة الحليب، وروس واقف وراءها، لاحظ انه لم يزل في معطفه، خلع عنه لباسه الرطب ووضعه فوق الكرسي.

«لقد وجدتها.» قالت كاثلين ذلك بعد مضي دقيقة، حيث تناولت زجاجة الحليب البلاستيكية عن الرف السفلي ورفعتها كي يراها روس. «اعتقد اننا كنا وقعنا في مشكلة أسوأ لو لم نجدها.»

إنضم اليها روس قرب الخزانة، وقال لها: «ربما استطعنا ان نستعمل قفازاً مطاطياً كما تشاهدين في جميع الأفلام القديمة، يبدو انه يساعد.»

ابتسمت كاثلين لاقتراحه، وفي اعتقادها انهما قادران أيضاً على ايجاد ما استطاعا من دعابة في الموقف. اقل ما يمكن، ان ذلك سيكون افضل من ان يعيشا على المأساة التي لكانت قد حصلت لو لم يجد روس دوغلاس الطفلة في الوقت المناسب. قالت: «حسناً، في الحقيقة كنت افكر منذ لحظة بفيلم قديم، حيث تجبر الظروف ثلاث رعيان بقر على الاهتمام بمولود يتيم.»

«إنه «العرابون الثلاثة، لجون واين.» قال ذلك بابتسامة عريضة.

وقد تسببت تلك الابتسامة الكسولة بخطوط وتجاعيد في خديه، وومضت عيناه الرماديتان بشكل ماكر.

شعرت كاثلين بعينيها تنجذبان إلى وجهه، وكأنه لم يكن في الغرفة شيء لتنظر إليه سواه. ثم قالت: «هل شاهدت الفيلم؟»

«نعم.» أجاب بضحكة خافتة.

كانت كاثلين مسرورة لترى أن هذا الرجل كان قادراً على المزاح على الرغم من الظروف المحيطة بهما، كما كانت مسرورة أيضاً لأنها كانت تشاركه الضحك، ثم انها أرادت ان تظهر لنفسها ان كونها وجدت ذلك الرجل جذاباً، لم يكن في الحقيقة أمر يقلق.

راح روس يراقبها وهي تثقب علبة تحتوي على الحليب المكثف.

ثم سألها: «هل هذا ما أوصى الطبيب بأن تقدميه؟»

أشارت كاثلين إلى ملاحظة ملقاة على المنضدة.

«أنظر بنفسك.»

ألقى بنظرة فاحصة على قطعة الورق، وقال: «لدينا شيء تأكله، هل تتوفر عندك كمية من هذا الطعام؟» سألها وهو يشير إلى العلبة.

أجابت: «الكثير منه، اني أطهو واخبز باستمرار، وأحب ان اكون مجهزة بكل المواد الضرورية.» ولم تستطع لجم نفسها من النظر اليه والابتسام. رد روس على ابتسامتها بابتسامة منه، وقد لف ذراعيه على بعضهما، فوق صدره.

سألته ضاحكة ثم امتعضت: «هل أنت غير واثق من طعام الطفلة هذا؟»

ارتسم تعبير وديع على وجهه، وهو يراقبها وهي تضع كمية موزونة من الماء فوق الحليب الدسم، أجابها: «ليس الأمر على هذا الشكل، فقط... أريد ان تكون الطفلة بخير.»

وبطرف عينها، رأته كاثلين يحدق على الطاولة حيث تستلقي الطفلة، وهي نائمة على الحرامات المطوية.

شيء ما بداخلها تحرك، عندما رأت تلك النظرة الحنونة ترتسم على وجهه.

«وأنا أريدها ان تكون بخير. ان كان هذا ما يشعرك بأنك افضل حالاً، فأنا لست بغبية، في الواقع، انا معلمة مثلك بالرغم من اني لا ادرس في الوقت الحاضر.»

فوجيء روس باعترافها، إذ انه قد حكم على انها امرأة ثرية، ليس عليها ان تقوم بأي عمل.

«لِمَ لا؟ أعني، لم انت لا تدرّسين الآن؟»

بقيت عينا كاثلين مسمرتين على الحليب الذي تمزجه، وهي تجيب: «لقد قتل زوجي منذ سنة، وبقيت فترة حتى تمكنت من ان استجمع قواي... أردت العودة إلى العمل، لكن في الوقت الذي عدت فيه كان الأمر متأخراً لأجد مركزاً شاغراً في التعليم في الصف الثانوي ما قبل الأخير. ربما في بداية السنة المدرسية المقبلة، قد يتوفر عمل لي.»

شعر وكأنه وضيع، لكن كيف كان عليه ان يعلم انها كانت متزوجة، أو بالأحرى ان زوجها متوفٍ.

«إني آسف، فقد كانت تلك فضولية مني.»

اخذت كاثلين تذكره بأن غداً يصادف بداية السنة الجديدة، وبأنها لن تسمح لذكرى غريغ بأن تنال منها أبداً.

«لا تعتذر، فأنت لم تكن تعرف زوجي السابق، علاوة على ذلك، فأصحابي يسألونني نفس السؤال، لِمَ لا تعودين إلى التدريس؟»

«وهل تزعجك اسئلتهم؟»

ابتسمت كاثلين ابتسامة باهتة وهي تنظر اليه. «لم تعد تزعجني، إني اتطلع للرجوع إلى صف المدرسة.»

سألها: «هل غالباً تحدث العاصفة الجليدية هنا؟»

«لا تحدث تكراراً، لكن عادة نحصل على نصيبنا منها في كل شتاء.»

«هل تمازحينني؟»

ابتسمت كاثلين للتعبير المشمئز الذي علا وجهه، وقالت: «كلا، انه لأمر عادي ان تبقى مقيداً هنا في الجبل بسبب الثلج، الجليد، أو المطر المتجمد، خاصة في شهر يناير.»

«إني قادم من جنوب سان انطونيو، وليس عندنا طقس كهذا، في الحقيقة بينما كنت اتزحلق على حافة الجبل تساءلت ما الذي أتى بي إلى هنا.»

سألته مستفهمة: «لِمَ أتيت؟» صبت قسماً من الحليب المحضر في الزجاجة، ووضعت ما تبقى منه في الثلاجة.

عاد روس إلى الطفلة، وعلى الرغم من انها كانت تبدو

معافاة وطبيعية، كان هناك ما يحثه على ان يستمر في تفحصها، أجابها: «منذ وقت طويل طلب مني صديق ان احصل على هذه المهنة كخدمة أؤديها له، وبما أني كنت ابحث عن مدرسة، في مطلق الأحوال، قررت ان اقبل هذا المركز.»

حرصت كاثلين على أن تتأكد من انها اغلقت بإحكام غطاء الزجاجة قبل أن تسأله: «هل أنت تقوم بالعمل الذي كان يقوم به؟»

«كلا، صديقي هو المدير، والمدرب الذي سأحل مكانه في العمل قد تعرض لحادث سيارة سيء وكسرت رجله، وسيكون في نقاهة حتى فصل الصيف.»

وضعت الزجاجة في الماء الساخن لتدفئتها، بعد ذلك استدارت لتبقى مقابل روس وهي تنتظر الزجاجة كي تسخن، ثم سألته: «إذن عملك هو مركز مؤقت، إلى ان يستطيع المدرب المشي على قدميه؟»

أومأ روس برأسه، وقال: «كلا، فهذه السنة هي آخر سنة متبقية له في العمل. سيتقاعد، لذا أنا اشتريت المنزل، لا أريد أن ابدأ حياتي الجديدة مستأجراً.»

اطرقت مفكرة، إذن انه يخطط للبقاء في المنطقة، فقد سرت بالخبر، بالرغم من عدم معرفتها السبب، وقد خالجها الشك بأن أماكن تواجدهما كجيران سوف تتزايد، حالما تحل مشكلة الطفلة وتتوقف العاصفة.

«لا بد انه كان صعباً عليك ان تنتقل إلى هنا في مدة إشعار قصيرة.»

«ليس بالتأكيد، كان علي الانتقال بمفردي، وبما أني لم

اكن أدرس في الفصل السابق في سان انطونيو، فما كان علي ان اقلق حول إنذار أو ما شابهه.»

تساءلت كاثلين... لو لم يكن يعمل في مجال التدريس، ما عساه كان فاعلاً؟ لكنها احتفظت بهذا السؤال لنفسها. فقد بدا انها تظهر اهتماماً كبيراً بهذا الرجل.

امسكت الزجاجة وتحسست حرارة الحليب على الجزء الداخلي من ذراعها. «هل تريد ان تطعمها أنت؟» سألته ذلك وهي تقدم له زجاجة الحليب.

رد عليها بسماجة: «اعتقد انه يتوجب عليّ الانتظار لأرى ان كانت تستطيع الإمساك بها.»

رمقته كاثلين بنظرة طويلة حادة. «لو أني أرغب في ان اكون خبيثة، لكنت ذكرتك كيف كنت تصرخ باستمرار بأن علينا اطعامها. ولكن كوني لست من ذلك الصنف، فسوف أسكت.»

منذ ساعة ونصف لم يكن روس قد التقى بهذه المرأة... لما بدأ يشعر الآن وكأنه يعرفها من قبل؟ كما كان يعلم انها تعمل على إزعاجه عن قصد اكثر من أن تسخر منه؟ لم يجد مبرراً لهذه الاسئلة، لكنه عرف أمراً هو ان ذلك الومض العابث في عينيها كان مثيراً للغاية.

اجابها على مهل: «يسرني انك لا تنتمين إلى ذلك الصنف من الناس.»

في تلك اللحظة كانت تنظر مفتونة إلى غمازة على خده النحيل، وبلمعة في اسنانه القويمة وبالنور المضحك في عينيه الضيقتين.

خطت نحو الطفلة، ثم جلست على إحدى كراسي المطبخ

ومن بعدها حضنت الطفلة بين ذراعيها واعطتها زجاجة الحليب.

بعد بضع محاولات فاشلة، استطاعت من ان تتدبر أمر وضع الزجاجة في فمها، لكن سرعان ما رفضتها الطفلة وعلا صراخها.

التفتت كاثلين إلى روس، وسألته بخوف: «ماذا سنفعل لو انها لا تريد ان تأكل؟ ماذا سنفعل؟»

ان امتناع الطفلة عن أخذ الحليب اقلق روس بقدر ما اقلق كاثلين، لكنه حاول ألا يظهر لها ذلك. «لا ترتبكي، ستأكل فقط امنحيها دقيقة من الوقت.»

قامت كاثلين بالمحاولة مرة أخرى، لكن الطفلة لفظت الحليب وشرعت بالبكاء ثانية وبشكل جدي.

أرادت كاثلين ان تنفجر بالبكاء وتضم صراخها إلى صراخ الطفلة. قالت بحزن: «انها ترفض أية محاولة.»

«هي تعرف انك قلقة وغاضبة، هل انت ترغبين في ان تأخذي طعامك مع شخص وهو يلوي يديك.»

حدقت كاثلين به، وأجابت: «إني لا افعل ذلك، اني قلقة، وما من مرة في حياتي قمت بإرضاع طفلة! خذ اطعمها أنت!» ثم وقفت وسلمت الطفلة إلى روس الذي فوراً صعق بتبادل الأدوار بينهما.

وأخذ يصرخ بها: «لِمَ تريدين مني ان احاول؟ لا اعرف ماذا أفعل!»

وضعت كاثلين يديها على كتفيه ثم دفعت به على الكرسي. «وأنا لا اعرف، يمكنك ان تحاول.» بهذه الكلمات خاطبته، ثم ناولته الزجاجة.

حضن روس الطفلة بحذر بين ذراعيه، واخذ يدندن لها برقة، بصوته العميق كلمات مشجعة.

إندهشت كاثلين كيف ان الطفلة بدأت تهدأ، فاغتنم روس الفرصة في تلك اللحظة وقدم لها الزجاجة مجدداً، هذه المرة راحت الطفلة تتذوق الحليب وتلتهمه.

تنهد الاثنان تنهيدة ارتياح لأن الطفلة كانت تبتلع الحليب الدافىء بنهم شديد.

اعلنت كاثلين: «أظن إنها قد أحبته.»

أدرك روس انها اتخذت مكاناً على مقربة من كتفه وكانت تحدق بالطفلة بين ذراعيه.

أجابها: «اخبرتك انها كانت جائعة.»

كانت تطغى على صوته الأبح نغمة لبقة ومرحة، مما جعل كاثلين تميل برأسها لتنظر إليه. ثم ابتسم لها ابتسامة جعلتها تشعر بالفرح والدفء.

«ها قد استطعت ان تطعمها يا روس، لا بد أنها تحبك أكثر مني، أو انك تملك تلك اللمسة الخاصة.» قالت ذلك وهي ترد له الابتسامة.

كانت كلماتها وابتسامتها تبعث فيه السرور بشكل واضح. قال لها: «ليس لي علم بذلك. أظن انها ستكون بخير، ما رأيك؟»

نظرت كاثلين إلى الطفلة وتساءلت ما إذا كان الاحساس بالأبوة أو الأمومة على هذا الشكل، انها لن تعرف جواباً لهذا السؤال، لكنها تعرف ان هناك صلة مع هذا الرجل تربطهما بالمخلوقة الصغيرة الجديدة. فكلاهما أرادا ان تكون في أمان وان يكون هناك من يحميها ويهتم بها، وحتى الآن فقد

قاما بالعمل سوية ليمنحاها الكثير من هذه الأشياء قدر المستطاع وفي تلك الظروف.

«نعم، اعتقد انها بخير، فهي تلتهم الحليب بقوة، ويبدو انها تتنفس تنفساً طبيعياً، ولا تظهر عليها علامات حرارة أو احتقان، كل ما استطيع قوله انك وصلت إلى هذا البيت في الوقت المناسب.»

لم يكن روس قادراً على التعبير عن نفسه، فقد كان يعتبر انه شاب طيب، وعلى الأقل، طيب إلى حد ما. فهو يحب المسنين والاطفال، ويدفع فواتيره، ولا يطيق شخصاً لا يرأف بالحيوان.

التقت عيناها بعينيه، وشعر روس بحركة غير مألوفة في مكان ما بداخله...

أدارت كاثلين نظرها بسرعة عن عينيه الدافئتين، وتطلعت نحو الطفلة التي مازالت بين ذراعيه.

كم مضى من وقت لم تنظر خلاله إلى رجل وتحس بأنها امرأة؟ راحت تسأل نفسها. سنوات؟ إذن، لم يذكرها هذا الرجل، بأن اجيالاً مضت ولم يلامس قلبها رجل.

كانت تشعر بمراقبة روس لها وهي تبتعد بخطواتها عنه وعن الطفلة باتجاه النوافذ التي كانت تؤلف حائطاً واحداً من جدران الغرفة.

ان تعرف ان عينيه مسمرتان عليها أمر جعلها تحس بالدفء وبشيء غريب في داخلها، فقد كانت تحاول جاهدة تجاهل ذلك الشعور، عندما سمعت صوته يكلمها من الخلف.

«كيف يبدو الطقس في الخارج الآن؟»

أزاحت كاثلين الستارة عن النافذة، ونظرت إلى العتمة الداكنة، وهي تجيب: «يبدو لي وكأن هناك مطر متجمد. في الحقيقة، الظلمة خانقة في هذا الجانب من المنزل.»

أجاب: «يا للهول، لن نستطيع الخروج من هنا حتى الربيع.»

دفعت مبالغته الشديدة إلى أن تلتفت اليه من فوق كتفها وتقول: «أنتم أهل تكساس تظنون انكم تتجهون شمالاً إذا ما اجتزتم النهر الأحمر.»

لقد تمكن من أن يرى تلك الومضة تعود إلى عينيها. وعرف انها تتعمد مضايقته من جديد، ما جعل روس يتساءل ما إذا كان في شخصه شيء ما يدفعها على القيام بذلك. أم هل انها تقوم بمضايقة كل الرجال بكلماتها وعينيها؟ كلا، كلا، لم يكن راغباً في التفكير على هذا النحو. لكنه توهم انه كان الشخص الوحيد الذي رأى تلك الابتسامة الغامضة على وجهها.

ثم عادت وقالت ثانية: «اظن ان الطقس يبدو سيئاً في هذه اللحظة، لكن ربما غداً، قد يتمكن جرافو الطرق من جرف كل هذا الجليد. وان لم نستطع النزول غداً بالسيارة فبالتأكيد اننا سنتمكن من ذلك في اليوم التالي.»

كان يفكر روس برزمة اللحم التي وضعها على رف في ثلاجته، إذ كان ينوي شراء المزيد من البقول، لكنه كان قد انشغل بنقل الأثاث وصناديق الكرتون المملوءة بالثياب وبقطع أخرى من الخردة التي جمعها على مر السنين. أما مهمة شراء البقالة فكانت قد تأجلت.

كان يراقب الطفلة فيما كان قياس الحليب يتلاشى ببطء

في الزجاجة. «حسناً، اعتقد أني استطيع ان أحيا على قلة الطعام ليومين.» قال ذلك، وترافق قوله بهزة ودية من احدى كتفيه، وتابع: «وبأي حال، فأنا لا أجيد الطبخ.»

تعلقت عينا كاثلين بالرجل، ولاحظت طول ساقيه، كان ينتعل جزمة كجزمة رعاة البقر، بنية اللون وذات كعب عال كالتي ينتعلها شقيقها سام، وفي وقت سابق لاحظت انه كان يتنقل بها بخفة، وبالكاد يسمع وقع اقدامه على أرض المطبخ وهو يتمشى حاضناً الطفلة بين ذراعيه.

سألته: «لست ذاهباً إلى بيتك.»

الفصل الرابع

أخذ روس يحدّق بها، وعلا وجهه تعبير انبهار، وسألها مستفهماً: «عفواً؟» وإذ هي أدركت كم بدت متبلدة الذهن، غمر محياها العاجي لون قاتم.

«كنت أعني ان قشرة قاسية من الجليد تغطي الأرض في الخارج، وستقوم بضرب من الجنون ان حاولت الرجوع إلى منزلك، على الأقل، الليلة وفي أي حال، فانت تقصد ترك الطفلة معي، أليس كذلك؟»

أجابها: «لم يكن لدي الوقت لأفكر بذلك.» وتساءل كيف سيكون شعورها حياله لو أمضى الليلة عندها. قد تقضي خوفاً وهي وجهاً لوجه مع رجل غريب في منزلها.

لقد أثار حذره فيها غضباً، انه أمر غير منصف، ساورها الظن، لكنها لم تحتمل هذا الوضع، كانت على وشك التفكير بأنه رجل يهتم حقاً بالناس الآخرين، ولم ترغب في ان تفكر عن جديد ان حكمها كان خطأ.

قالت بحذر: «اعتقد انك مهتم لأمر هذه الطفلة، وبدا عليك انك مهتم للغاية عندما وقفت على عتبة بابي.»

صدر منه صوت محبط، وهو يأخذ نفساً ليقول: «اني اهتم لأمرها! كيف تشكين بذلك؟»

لاحظ روس ان الطفلة أوقفت الرضاعة، فانتزع زجاجة الحليب الفارغة من فمها وأومأ لكاثلين بأن تقترب. قال

لها: «إنها بحاجة لأن تتجشأ، أنا لا أعرف كيف أفعل ذلك، هل تعرفين؟»

عادت كاثلين ادراجها وقالت: «اظن ذلك.» ردت قائلة وهي تتناول منه الكرسي.

بحذر سلمها روس الطفلة، فوضعتها كاثلين على كتفها وبدأت تربت على ظهرها.

مضت دقائق معدودة ولم تتفوه بأي شيء، وظن روس انها كانت حانقة عليه، لكن ذلك لم يعجبه، ومهما يكن رأي كاثلين هايز به، فلم يكن يرغب بأن يبدو عديم الاحساس.

«انظري، يا كاثلين، أريد ان ابقى الليلة هنا لأتأكد من انك انت والطفلة بخير، اني فقط لم اعرف ما إذا كنت تريدينني ان افعل.»

نظرت إليه محدقة، وكأنه مجنون أو ما شابه. «أو تعتقد اني أرغب في ان أترك لوحدي هنا مع مولودة جديدة، ومن دون أية وسيلة للتنقل؟ انت أقرب جار لي، حتى وان وضعت رأسي خارج الباب وصرخت بأعلى صوتي، ستكون بعيداً جداً لتسمعني.» توقفت عن الكلام هنيهة تكفيها لتتابع: «حتى أننا لم نبلغ بعد السلطات المختصة بكل ما حصل.»

كان روس مدركاً لكل ذلك، لكنه في الحقيقة، كان يعي انه رجل وهي امرأة، وهي لا تعرفه كفاية لتشاطره منزلها.

نظر إليها، وقال: «هذا بيتك، لم أكن أريد ان اخيفك بإلحاحي عليك بالبقاء هنا. فأنت لا تعرفينني، ومن الواضح انك هنا بمفردك.»

وفجأة، استنتجت كاثلين ان روس كان قلقاً من ان تكون لديها مخاوف ان بقيت لوحدها معه في المنزل، لكن الأمر الذي لم يكن متوقعاً، هو ان خوف كاثلين الوحيد كان من ألا يبقى معها.

قالت مؤكدة له: «اظن انك ستوافق على اننا نمر في ظرف غير عادي، فلا تقلق حيال هذا الأمر، اني أثق بك.»

بدا على وجهه الارتياح. «اني شاكر لك، أؤكد لك أني رجل نبيل اصيل من تكساس. وليس لديك داعٍ بأن تقلقي.»

حينئذٍ اطلقت الطفلة صرخة قوية. «ان التجشؤ لا يليق بسيدة مثلك.» قالت كاثلين ذلك وهي تبتسم للطفلة ثم خاطبت روس: «لا اريدك ان تكون رجلاً نبيلاً، اريدك ان تكون صديقاً لي، صديق استطيع ان اعتمد عليه عندما تستيقظ هذه الفتاة الصغيرة في الليل باكية.»

«هل ستستيقظ باكية؟ اعتقدت انها ستنام الآن من جديد.»

«أتوقع انها ستستيقظ، ولو لفترة قصيرة، ولكن اعرف جيداً ان الأطفال يستيقظون من وقت لآخر ليرضعوا.» وعادت كاثلين لتسأله: «ألم يكن في بيتكم طفل من قبل؟»

هز روس رأسه مجيباً: «أنا الولد الوحيد، سورتا.»

مسحت كاثلين الحليب عن زاويتي فم الطفلة بمنشفة، ثم حضنتها بين ذراعيها، وسألته: «ماذا تعني بـ سورتا؟» كانت تنظر إلى الطفلة ولم تر الضحكة الخافتة المرتسمة على وجه روس.

«لدي إخوة ليسوا بأشقاء واخوات غير شقيقات. دزينتان منهما في الحقيقة.»

بفضولية التفتت فيه، وسألته: «دزينتان؟»

«نعم، فقد انفصل والداي عندما كنت في العاشرة من عمري، وكلاهما تزوجا وكان لديهما أولاد.»

«آه... فهمت.»

اخذ روس يحرك كتفيه، بينما كان يتساءل ما اذا كانت حقاً قد فهمت، اذ كان يشك في الأمر. فامرأة مثلها لم تكن لتعرف ما معنى ان يتنقل طفل من بيت إلى آخر. فقد كبر وهو لا يدري إلى أي بيت ينتمي.

والآن، فهو يتجنب الاحتكاك بالعائلتين على السواء، فكل من والدته ووالده يعيش مع شخص آخر، وكل واحد منهما لديه أولاده. روس كان الولد الغريب المنبوذ، كان حياً ليذكر والديه بالخطأ الذي تسبب به زواجهما.

«لدي شك، يا كاثلين، وهناك شيء يحدثني بأنك ترعرت في منزل واحد مع والديك الحقيقيين.»

كانت كاثلين قد تفاجأت بتخمينه، مندهشة من انها قد أثارت انتباهه إلى هذا الحد بالدرجة الأولى، ومتفاجئة حيث انه قام باستنتاج صائب.

«نعم، الأمر كذلك. ترعرعت في مزرعة تقع على بعد اكثر من ميلين من هنا، وانا سعيدة بالقول ان والديّ لا يزالان معاً وبعافية، وما زال يجمعهما الحب.»

أجابها: «انت محظوظة.»

لم تستطع كاثلين التحديد بالضبط ما اذا كانت تسمع رنة حزن أو سخرية في صوته، قد يكون القليل من الاثنين معاً، فقالت: «نعم، اظن اني محظوظة.» ثم نظرت إلى الوجه الطفولي الحلو الذي كان يضغط على صدرها. وتابعت:

«اتمنى ان نستطيع قول الشيء نفسه لهذه الطفلة البريئة، ماذا سيمكنها القول عن طفولتها عندما تصبح في مثل عمري وتعود بذاكرتها إلى الخلف!»

بسرعة تحولت تعابير وجهه فأصبحت متجهمة، حين قال: «لا يسعنا التنبوء على أي حال، كيف سيكون مستقبلها، لكنني اعرف شيئاً واحداً، وهو أني سأعمل على ان اتأكد من ان الأشخاص الذين رموا بها على عتبة منزلي سوف لن يحصلوا ابداً عليها!»

تفاجأت كاثلين بالعنف الذي أبداه روس، بالرغم من انه كان عليها ان تتوقع ذلك. وبعد تفكير منها رأت ان روس دوغلاس، على ما يبدو، رجل يملك افكاراً متطرفة عن الحق والباطل، تماماً مثل شقيقها.

«إني موافقة، فمن الواضح ان اهلها لم يرغبوا في الاحتفاظ بها، وهي تستحق من يحبها تماماً كأي طفل في هذا العالم يستحق بأن يكون محبوباً.»

أحست كاثلين بألم خفي في صدرها، اجبرها على ان تنحني وتقبل خد الطفلة الطري.

وهي تنظر إلى أعلى، لاحظت كاثلين روس وهو يراقبها، وقد امتلأت عيناه بشيء نكرها بأن كلاهما رجل وامرأة، ولا يوجد أحد سواهما.

تنفست نفساً طويلاً، ثم اخذت تخرج الهواء من فمها على مهل قبل ان تتكلم. «تبدو الطفلة تغط في نوم عميق الآن. سأنقلها إلى غرفة الجلوس، فقد تكون النار المشتعلة في الموقد قد اضفت على الغرفة جواً لطيفاً ودافئاً الآن، وعلينا ان نرى كيف سنتصل بالشريف.»

بسرعة نهض روس واقفاً على قدميه وهو يقول: «هل تريدينني أن انقلها، أم تستطيعين أنت القيام بذلك؟»

ابتسمت تقديراً لخدمته. واجابت: «يمكنني تدبر أمرها إذا ما حملت لي تلك البطانيات.» قالت ذلك وهي تومىء برأسها نحو كدسة مكومة على الطاولة.

تلمس روس البطانيات، وهو يظن انه لم يتبق له من شيء ليفعله سوى ان يقضي ليلته في المنزل.

ابتسم ابتسامة المراوغ وهو يتبع كاثلين إلى خارج المطبخ. حسناً، يا روس، راح يسائل نفسه، كم هو سيء ان تمضي ليلة العيد مع امرأة جميلة ومولودة جديدة؟

«يا له من شعور مدهش.» قال روس ذلك، عندما دخل الثلاثة إلى غرفة الجلوس، وتابع: «أثناء صعودي إلى منزلك، لم اكن اتصور اني سأنعم بالدفء ثانية.»

أما الدار حيث يطيب الجلوس فيه امام الموقد، فقد تألف من اريكة مخططة، وعلى جانبيها كرسيان محشوتان بحشوة زائدة. وها هي النار الآن تشتعل في الموقد، وتملأ الغرفة حرارة بهيجة، وضعت كاثلين الطفلة على طرف الاريكة وغطتها ببطانية خفيفة.

وفيما هي تبتعد عن الطفلة رأت روس واقفاً امام الموقد، معرضاً ظهره للنار، وكان يداعب باصابعه خصلات شعره المتموجة وكأنه يطرد التعب.

الآن وقد حصلت الطفلة على ما يلزمها من عناية، اصبح لدى كاثلين متسع من الوقت للتفكير. كانت تشرع في تصور ما عاناه روس دوغلاس اثناء هذه الأمسية، وكان عليها الاعتراف بأنها اعجبت بالرجل للجهود التي بذلها، لا شك ان

إيجاده للطفلة كان بمثابة صدمة له. واطرقت تفكر، كونه كان عليه ان يحملها وهو يتسلق جبلاً منزلقاً، وتحت الأمطار المتجمدة، لم يكن الأمر بالنسبة إليه بمثابة رحلة ممتعة قام بها.

«لا بد انك مرهق، لم لا تجلس وتستريح في حين اقوم انا بطلب دائرة الشرطة!» هذا ما اقترحته عليه وهي تتقدم نحو الهاتف.

جلس على الكنبة. وقال: «أنت على حق، اني متعب، في الخارج يبدو الجبل مغطى بقشرة من الجليد. مقابل كل قدم خطوته صعوداً، كنت أنزلق إلى الخلف قدمين.»

سألته: «لست قادرة ان اتخيل كيف صعدت الجبل والطفلة بين ذراعيك.»

«حسناً، ان ذلك لم يكن اكثر سوءاً من محاولتي في اجتياز الطريق العام بشاحنتي.»

كانت كاثلين على وشك الامساك بالهاتف، لكن ملاحظاته جعلت يدها تتوقف عن الحركة، وسألته: «انك لم تحاول، هل قمت بذلك؟»

وبعبوس هز رأسه ايجاباً وقال: «الآن وقد هدأت كفاية حيث يمكنني ان افكر، أرى اني كنت مجنوناً إذ حاولت قيادة الشاحنة في مثل هذا الطقس، فقد كنت على وشك الإنزلاق عن حافة الجبل.»

ان فكرة تدهوره مع الطفلة إلى الوهد المعتم البارد جعلتها ترتعد خوفاً. «حسناً، من حسن الحظ انك لم تنزلق.»

لقد شعر بأنه أحمق على الرغم من انه يملك سبباً حقيقياً

لذلك. ثم قال: «كان عليّ ان احشر سيارتي في الخندق. آمل فقط ان تبقى هناك حتى يوم غد، أو إلى حين استطيع اخراجها من الخندق.»

«في حال تمكن عمال الطرق من الوصول إلى المكان الليلة فقد يدفعون بها إلى الخارج. لو كنت مكانك لما قلقت بشأنها.» قالت ذلك وهي ترفع السماعة إلى أذنها. ثم تابعت: «ان مسألة السيارات التي يتركها اصحابها شيء عادي جداً هنا في فصل الشتاء.»

مدت كاثلين يدها لتضغط على رقم الطوارىء في دائرة الشرطة، ثم توقفت إذ لاحظت ان خط الهاتف معطل.

ثم سألت بصوت عالٍ: «ما بال هذا الهاتف؟» وهي تضع السماعة ثم ترفعها.

«حاولي الاتصال بموظفة الهاتف.» اقترح روس ذلك، حين وجد ان الحظ لم يحالفها.

حاولت كاثلين الاتصال بموظفة الهاتف، لكن دون جدوى فتأوهت قائلة: «آه، ماذا نفعل الآن؟ لا نستطيع ابلاغ السلطات المختصة عما حصل من دون هاتف!»

أشار روس اليها بيده محاولاً تهدئتها. «لا تغضبي، قد يعود الخط ليعمل من جديد في وقت قصير.»

«وفي حال أنه لم يعمل؟ ماذا سيحصل لو ان الشريف ظن اننا قد خطفناها أو سرقناها؟ ماذا لو ظنوا اننا تهربنا من الاتصال بهم، وقد يوجهون الينا تهمة بعدم الابلاغ عن جريمة! آه... يا روس.»

ولدى رؤيته كاثلين ترتعد من الوضع الذي وصلا إليه، مضى روس إليها، وقال: «ان نخلط بين الاشياء، أمر لن

يفيدنا بشيء.» امسك يدها بيده، فوجد اصابعها باردة وقد تجمدت، راح يفرك اصابعها باصابعه الدافئة، وهو يقول: «لن يتهمنا احد بشيء هيا... تناسي الأمر... سنحاول مجدداً بعد قليل.»

تنهدت كاثلين بحزن، وهو يقودها إلى الكنبة، ويقول: «أعرف انك قد تكونين على صواب، اظن... لا أعلم، الآن، لقد ولى أمر الاهتمام الطارىء بالطفلة، والآن بدأت اشعر بالصدمة التي تسببها كل ذلك.»

جلس روس بجانبها على الكنبة الطويلة، وتابع: «صدقيني، اعرف ما تقولينه، كان ينتابني نفس الشعور عندما ادخلتني ومعي الطفلة إلى منزلك.» ابتسم لها ابتسامة اعتذار: «أعرف أني قد بدوت قوياً بعض الشيء، لكنني عادة لست كذلك.»

لمرتين متتاليتين كانت كاثلين ترغب في صفع روس على وجهه. لكن الآن وقد مرت الكارثة الأساسية، علمت انه كان يتصرف دون اكتراث بالطفلة، ثم ردت عليه قائلة: «و أنا لست عادة قوية.» ثم لاحظت انه مازال يمسك بيدها، فما كان منها إلا ان دفعت يده بلطف، وتابعت: «إذن أنت قد صدر السماح عنك.. وهل صدر عني؟»

تمنى لو انها لم تسحب يدها، فقد احب ملمسها.. وبشرتها الناعمة واصابعها الطويلة الطرية التي كانت تطبق على اصابعه.

ثم قال مؤكداً لها: «ليس هناك من شيء لنسامح من أجله.»

«حسناً، والآن بما ان الطفلة قد شربت حليبها، يجب ان

نأكل نحن. قبل مجيئك كنت احضر وجبة خفيفة، هل تناولت شيئاً من الطعام هذا المساء؟»

عندما سألته، نظر بارتياح، ما جعلها غير قادرة على لجم نفسها عن الضحك.

وقال معترفاً: «لكي اكون صادقاً معك، اني اتضور جوعاً، لم أذق الطعام منذ صباح هذا اليوم.»

وبخته قائلة: «كان عليك قول شيء من هذا النوع في وقت سابق.» وكانت ابتسامة على وجهها قد خففت من حدة صوتها.

هز كتفيه، وكأن راحته الجسدية لم تكن بالنسبة اليه ذات اهمية كبيرة، وقال: «حتى اني لم الحظ اني جائع حتى الآن، كانت الطفلة كل ما أفكر به.»

«وأنا أيضاً، لكنها نائمة الآن بسلام، إذن لم لا تتمدد على الكنبة بجانبها، وسأذهب لتحضير اي شيء نأكله نحن الاثنان.»

كان روس يراقب كاثلين وهي تغادر الغرفة، وبدا كأن تلك المرأة قد خدرته بجاذبية خاصة بها، ففعل ما أوصته به وتمدد على الكنبة، لكنه كان حذراً، فأبعد جزمته عن الوسائد.

راح روس يخاطب نفسه بأنه لم يكن مخدراً، وهو يغير وضع رجليه ليحس براحة أكبر، لقد كان متعباً فحسب، وأحداث الساعتين الماضيتين تركته مضطرباً. علاوةً على ذلك، فانه لم يكن حدثاً طبيعياً، ان يجد طفلة على عتبة بابه. كما انه لم يكن أمراً عادياً بالنسبة لامرأة، ان يندفع إلى بيتها رجل وعلى ذراعيه مولودة

جديدة. لذا لم يكن أمراً عجيباً ان يكون كل منهما مضطرباً.

حملته افكاره على النظر إلى طرف الكنبة حيث ترقد الطفلة فوجد وجهها محمراً ومنتفخاً، وأنفها افطس، وفمها قد تغضن وبدا كقوس صغير. ولما تطلع روس فيها، تخيلها كتلميذة محببة في الصف الرابع الابتدائي، منمشة الوجه، وشابة جميلة في لباس لحفلة راقصة.

واطرق يفكر، انه لأمر غريب، اذ انه لم يشعر أبداً بصلة تربطه بأشقائه وشقيقاته كارتباطه بهذه الطفلة التي رآها فقط منذ ساعات.

ربما عليه ان يشعر بعقدة الذنب حيال ذلك الأمر، لكن هذا الشعور لم يخالجه، فهذه الطفلة من دون والدين أو مأوى. اما اشقاؤه، وشقيقاته، فمثل هذا الشيء متوفر لهم.

وهو متكيء برأسه على الكنبة، اغمض عينيه، واخذ نفساً عميقاً، كاثلين غالاغر هايز، وفجأة مر هذا الاسم في مخيلته، حاملاً معه صوراً عاصفة عن تلك المرأة التي لم يكن يتوقع أن يراها على الشكل التي بدت عليه عندما استقبلته مع الطفلة عند الباب الأمامي لمنزلها.

توقع روس ان يرى امرأة باردة، لائقة، وعلى الأرجح، اكثر من عاجزة، وحتى الآن، فقد اثبتت انها ليست على هذا النحو. وعليه ان يعترف بأنها قد أسرت لبه، ومن هم مثل روس، عادة، لا يمكن لامرأة ان تأسرهم، فقد كان يحب صحبة النساء، لكنه لم يكن من نوع الرجال الذين يديرون رأسهم مرتين لامرأة.

فهو يعتبر ان الحب والزواج من نصيب شبان آخرين. ولا يحبذ أولئك الرجال الذين يرغبون بمنزل يستقرون فيه مع عائلة كبيرة. لم يكن ذلك النمط من العيش يروق لروس دوغلاس. فقد شاهد ما كان يجري في ذلك البيت العائلي. اما فيما يتعلق به، فقد يمكنه العيش خارج هذا الإطار.

الفصل الخامس

«آمل ألا تمانع في ان اقدم بعض بقايا مما لدي من طعام.»

فتح روس عينيه فوجد كاثلين قد عادت، وكانت تضع صينية الطعام امامه، على طاولة القهوة الصغيرة. آنذاك، لم يكن يدرك ما الذي يعذبه اكثر، رائحة خفيفة لعطر ياسمين منبعث منها، أم رائحة يخنة العجل الساخنة.

خاطبها، وهو ينهض: «اني مستعد لأتناول أي شيء شبيه بالطعام.»

ناولته فوطة وملعقة. وسألته: «هل تأخذ قهوة؟ أم انك تفضل شراباً آخر؟ عصير خفيف؟»

لاحظ روس انها أرادت ان يتناول طعامه حيث كان يجلس، تطلع بريبة إلى الاريكة التي تلونت بلوني البيج والأبيض وبالسجادة تحت جزمته التي كانت من اللون نفسه.

وقال: «لا بأس بالقهوة، لكن ان اتناول الطعام على هذه الاريكة، أمر قد لا يكون مناسباً.»

شرعت كاثلين تسكب كوبين من القهوة من إبريق، وهي تومىء برأسها إيماءة عنيدة، تنبئه تماماً بمدى اهتمامها بأثاث المنزل ثم اوضحت له: «انه مكان لنسكن فيه، لا لننظر إليه.»

تقدمت نحوه وجلست إلى جانبه. والآن وبما ان الطفل لم

www.elromancia.com

يعد يصرف انتباهه عنها، فقد وجد ان تلك المرأة قد ذوبت احاسيسه، وفي الحقيقة جعلته يشعر بأنه شاب أحمق وانفعالي.

خاطبته كاتلين قائلة: «اخبرني، إذن، كيف تمضي عادة ليلة العيد؟»

ضحك في قرارة نفسه ضحكة ساخرة، وهو يغمس ملعقته في الطعام وأجاب: «حسناً، عادة امضيها في البحث عن اطفال تخلى عنهم آباؤهم.»

تناولت كاتلين لقمة من الطعام، ثم راحت تمضغها وهي مطرقة في التفكير قبل ان تقول: «قبل مجيئك كنت في الحقيقة اشعر بأسى على نفسي، فالليلة تقيم عائلتي حفلة خاصة، خطوبة شقيقي نيكولاس، وشقيقي سام وصل إلى منزله من شهر العسل هذا الصباح.»

«إذن، لقد كانوا يتوقعون قدومك. هل تعتقدين انهم قلقون عليك لأنك لم تذهبي؟»

هزت كاتلين رأسها نفياً، واجابت: «تحدثت مع نك قبل قدومك بوقت قصير. فأمرني بألا احاول النزول من الجبل في سيارتي. وعندما يفرض نك أوامره، اعني انه يفرضها... فهو رقيب مدرب، هل فهمت، لكنه وعدني بأن يعيد الاتصال.»

اجابها قائلاً: «هل سيتصل والهاتف معطل، لا يبدو انه سيتصل بك الآن.»

هزت كاتلين كتفيها بشكل ودود، وقالت: «على أي حال فقد يكون قد نسي كل شيء عن الموضوع. فهو الآن مغرم، وعاطفي إلى أقصى حد. هل فهمت ما أعنيه؟»

كلا، لم يكن يفهم ما كانت تعنيه، لأنه لم يقع في الحب أبداً، كان يحس بالافتتان من وقت لآخر، لكنه لم يغرم.

اجابها قائلاً: «الحب قد عم عائلتك.»

ابتسمت كاتلين ابتسامة ودودة، وردت قائلة: «أخي سام يكبرني بقليل وهو متزوج، ونك يصغرني بسنتين، لكني لم اكن اتصور انه سيستقر في حياته أبداً، في الواقع لقد سئمت منهما، يمكنني ان اقول شيئاً واحداً، وهو ان فرص الأعياد كانت مضجرة هذه السنة.»

لم يكن يعطي روس يوم العيد اهتماماً كبيراً، فقد أمضى النهار لوحده يراقب لعبة كرة القدم على شاشة التلفاز. كما مر أيضاً من دون ان يحمل أي حدث ينكر، إذ معظم اصدقائه كانوا آنذاك في تكساس، وكان يرفض زيارة كل من عائلتيه، فلكل من هاتين العائلتين اولادها وبوتقة من الأصحاب تحتفل معها في فرص الأعياد. كان روس يفضل ان يبقى وحيداً على ان يختلط بهم، ويشعر بأنه غريب.

أجاب روس: «عليّ ان اعترف ان هذا الحدث يأتي في قمة الأهمية بالنسبة لما حصل لي خلال السنة.»

«ظننت أني سأمضي ليلة هادئة بمفردي، سوف لن تصدق عائلتي هذا الأمر!»

كانت توجد انواع من الجبنة والبسكويت المملح على الصينية امامه، انحنى روس واختار قطعة سميكة.

«هل يمضي اهلك ليلة العيد، كما تمضينها أنت؟»

وعندما لم تجب على الفور التفت روس اليها فوجد

ضحكتها الناعمة تتلاشى عن وجهها ليحل مكانها ظل من الحزن.

فوجىء روس لرؤيتها حزينة وتساءل ما إذا كانت لاتزال حزينة لوفاة زوجها.

«لكي اصدقك القول، لقد مرت ليلة العيد السنة الماضية، وكنت خلالها مشوشة الأفكار... حسناً، مضى وقت طويل قبل ان استطيع المجازفة بالخروج من المنزل.» وحاولت ان تتجنب النظر إليه وهي تغمس ملعقتها في الطعام.

وتابعت: «لكن خلال السنوات الماضية كنت أقضي بعض الأعياد مع أهلي، وبعضها الآخر في حفلات كان يقيمها زملاء زوجي في العمل.»

«وما كان نوع عمله؟»

ما ان انتهى من طرح سؤاله، أدرك انه كان عليه ألا يطرح مثل هذا السؤال، ولم يكن يعرف ما الذي دفعه إلى ذلك، باستثناء انه كان يرغب في ان يتعرف اكثر على هذه المرأة، وطرح الاسئلة كان اسهل طريقة للمعرفة.

ثم قال على عجل: «آسف يا كاثلين، ليس عليك ان تجيبي، اني اتدخل في اشياء لا تعنيني الليلة.»

قالت كاثلين وهي تتناول فنجان قهوتها: «لا تعتذر فأنا قد سألتك بدوري اسئلة شخصية.» اطرق يفكر... كان لديها اسبابها لتسأل، فهي امرأة وحيدة وتسكن في منطقة معزولة، ومن الطبيعي انها أرادت معرفة شيء ما عن الرجل الذي اذنت له بالدخول إلى منزلها، اما فيما يتعلق به فقد استطاع ان يفسر اهتمامه بها على انه انانية بحتة.

تساءلت كاثلين وهي تحدق به ان كان لديه فكرة عن تلك العواطف التي حركها في داخلها. وأحد دواعي تشوقها لهذه الليلة هو انها كانت ستمضيها مع عائلتها، وهذا أمر يحصل لأول مرة منذ وقت طويل، وليس مع زملاء غريغ في العمل، لم تعد مضطرة ان تتحمل تيههم وتباهيهم، ولن يكون هناك بعد الآن غرف ملأى بدخان التبغ، لا موسيقى صاخبة وضحك أجش، كلا لن يفهم هذا الرجل أياً من هذه الأشياء.

«كان غريغ يعمل في مجال التنقيب عن الغاز والنفط.»

«منقب عن النفط؟»

اومأت برأسها، وأجابت: «كلا في الحقيقة كان جيولوجياً، لكن انتهى به الأمر ليكون مديراً في مهنته اكثر من مكتشف في مجال عمله.»

لاح على وجهه تعبير شارد، أخذ روس رشفة من قهوته، ثم قال: «لا بد انه كان شاباً نكياً.»

«نعم، كان غريغ مثقفاً جداً، كان ملماً بكل شيء يتعلق بالجيوكيمياء.»

شيء ما في صوتها، ترك انطباعاً لدى روس بأن ما كانت تقوله شيء، وما تشعر به شيء آخر، وخطر بباله انها قد لا تكون راغبة في التحدث عن زوجها السابق.

في أي من الحالتين، فقد حسم روس أمره واكتفى بما سألها من اسئلة في الوقت الحاضر، ثم عاد وصب اهتمامه على القهوة.

«أنا نفسي ما كنت لأبرع كعالم، لكن اعطني كتاب تاريخ وستجدين ان الأمر سيثيرني.»

رمق روس كاتلين بنظرة موبخة، وتابع: «لا تقولي لي انك واحدة من اولئك الأشخاص الذين يظنون ان أمور الماضي لا علاقة لها بالمستقبل، لا تخيبي أملي يا كاتلين.»

ابتسمت له ابتسامة مراوغة، وأجابته: «كلا لست من اولئك الناس، في الحقيقة أنا أحب التاريخ، وبالأخص تاريخ أميركا القديم. لكن لا يمكنني رؤية رجل مثلك يستمتع به.»

تساءل روس عما تريده ان يستمتع به، فسألها: «ما الذي برأيك يسعدني.»

تورد وجه كاتلين خجلاً لسؤاله. وأجابته: «لا شيء طبعاً كنت اعني فقط انك تبدو كرجل يستهويه البقاء في الخارج.»

إتكأ روس بظهره على الكنبة، ليأخذ قسطاً من الراحة، وكان دفء منبعث من الموقد يلفح جسمه، فتسترخي عضلاته وتنبل عيناه، ثم خاطبها قائلاً: «أنا رجل أحب البرية والهواء الطلق، فأنا أقوم بتدريب البايسبول.»

رمقته بعينيها رمقة خاطفة احاطت بشعره الأسود، ورموشه الكثيفة الداكنة اللون التي تغطي جزءاً من عينيه الرماديتين، وظلاً خفيفاً للحية بدأت تظهر على بشرته السمراء.

«هل كنت دائماً تحب لعبة البايسبول؟»

اجابها بعد أن أخذ رشفة من القهوة: «منذ ان اصبحت يافعاً قادراً على وضع قفاز بيدي.»

«هل حاولت اللعب من باب الاحتراف؟»

كان يضحك ببطء وهو يحدق فيها، أجابها: «قصدت جامعة في أوستن، بمنحة خصصت لهذه اللعبة، ثم استمريت باللعب لصالح فريق اتحاد ثانوي.»

لاحظت ان روس دوغلاس كان يكن لهذه اللعبة اكثر من حب. وكان ناجحاً جداً بممارستها، بقيت عيناها تتفحصان وجهه، وهي تسأله: «ماذا حدث؟ توقفت عن اللعب؟»

لاحظت كاتلين ان ابتسامته بدأت تفتر، حين أجاب: «انه الشيء الذي يحدث لكثير من اللاعبين، لقد تعرضت لإصابة في ركبتي. حتى بعد ان اجريت عملية لها، وبعد كل انواع العلاج فانها لم تتحمل الجهد الذي تتطلبه اللعبة، ما أجبرني على الاستقالة.» انحنى إلى الأمام ليضع فنجان قهوته على المنضدة وتابع: «كل هذا قد اصبح من الماضي الآن.»

«لا بد ان ذلك كان بمثابة صدمة لك، فأنت مازلت شاباً، كان بإمكانك اللعب لسنوات اكثر بكثير، ولتمكنت من ان تصبح نولان ريان آخر.»

انطلقت من حنجرته ضحكة خافتة حملت كاتلين على العبوس بغضب. وسألته: «ما المضحك في ذلك؟»

«المضحك انك تقارنيني بأحد اعظم لاعبي البايسبول على الاطلاق.»

قالت وهي ترفع ذقنها: «حسناً في كل واحد منا يوجد شيء من العظمة. وكونك استاذ عليك ان تدرك ذلك الأمر وتغرسه في نفوس تلاميذك.»

ضحك روس ضحكة عالية، وقال: «كنت اضحك يا كاتلين، لأنني خلال لعبي كنت أنا من يلتقط الطابة.»

ضحكت بدورها وقالت: «إذن هو يرمي الطابة وانت تلتقطها، كنت ببساطة احاول ان اقول لك انك لكنت اصبحت شهيراً لو انك استمريت في اللعب.»

«ربما أحب ان افكر على هذا النحو.»

«هل كان أمراً صعباً عليك ان تعتزل اللعب؟» سألته وهي تراقبه عن كثب.

«قد أكون كاذباً لو قلت اني لم أكن تائهاً بعض الشيء في البداية. لكنني لطالما خططت لأن اكون مدرساً في يوم من الأيام، وهكذا عدت إلى الجامعة لأنهي دراستي وأحوز على درجة جامعية في التعليم، ويمكنني القول بصدق بأني فخور بها قدر ما كنت فخوراً بمهنة البايسبول.»

«كان والدي دائماً يقول، أن يكون المرء ناجحاً أمر ليس فيه من المتعة شيء، ما لم يختبر بعض الفشل وهو في طريقه إلى ذلك النجاح.»

«يبدو والدك كفيلسوف.»

كانت ابتسامة كاثلين مفعمة بالعاطفة، وهي تتكلم عن والدها: «في شخص والدي القليل من كل شيء.» انها معجبة بوالدها، استطاع روس ان يلاحظ ذلك على وجهها، وتمنى لو ان بإمكانه التحدث عن والده، وان يظهر نفس تعبير الحب والاعجاب على وجهه.

لكن ذلك الأمر لم يكن ممكناً، وكان يعلم ذلك، في بعض الأحيان كان روس يشعر بعقدة ذنب حيال هذا الموضوع.

«حسناً، أما فيما يتعلق بلعبة البايسبول، فأنا أدرب شباناً في ريعان عمرهم، كي يصبحوا متمرسين باللعبة لشيء يسرني.»

خاطبته: «إني آسفة لأنك اعتزلت مهنتك، لكنني مسرورة لأنك تهوى التعليم، انه لشيء مهم تقوم به.»

«شكراً على ذلك يا كاثلين، ولأنك قلت لي بأني لكنت اصبحت عظيماً.»

راحت كاثلين تخاطب نفسها، لقد كان شكره لي عادياً، ولكن لِمَ احست وكأنه مد يده ولمسها؟ ولم شعرت وكأن حجم الغرفة يصغر، وروس دوغلاس على قيد أنملة منها؟

وبشعور منها بالأسى، لأنها ستضطر ان تقطع حبل افكارها، هبت من مكانها وبدأت تجمع الصحون القذرة، وهي تقول: «سأعيد هذه الصحون إلى المطبخ.»

كان روس يراقبها بتمعن وهي تغادر الغرفة، هل كان يتصور ذلك، ام ان شعورها برد فجأة تجاهه؟ لم يستطع التفكير بما قاله لها لتنزعج. فقد كانا يتحدثان عن لعبة البايسبول، ام ماذا؟

تأمل شعرها الطويل الأسود وبشرتها البيضاء العاجية اللون. لم يكن بالأمر العجيب انه استطاع تذكر جزء بسيط فقط، من الحديث الذي دار بينهما. بازدراء وسخط، نهض روس من مكانه وتقدم ليقف امام الموقد، وفي الوقت نفسه لاحظ هاتفاً وضع على طاولة زجاجية بالقرب من كرسي، وأحس بأن الخط مقطوع قبل ان يهم بوضع السماعة على أذنه، وهو أمر لم يفاجئه. لم يكن يتصور ان احدهم كان قادراً على اصلاح خط الهاتف في طقس رديء مثل هذا.

بعد ان وضع السماعة في مكانها، راح يتمشى في

الغرفة، إلى ان اجتذبه منظر الطفلة التي تمددت على الكنبة، فانحنى ينظر اليها عن قرب.

كان لايزال الأمر صعباً على روس ليصدق انه وجد الطفلة مرمية في رواق منزله. وبأن شخصاً ما قد قصد وضعها هناك ليعثر هو عليها. لم يستطع تصديق ذلك الأمر، ومن المؤكد ان من ترك الطفلة هناك، لم يكن يعرف روس، والا لكان عرف انه لا يملك مقومات الوالد، أو حتى مقومات والد مؤقت.

كأن الطفلة علمت بما كان يجول بفكره، فاخذت تتلوى وتقطب جبينها وعلى الفور مد روس يده وأخذ يربت على رأسها، وبعد هنيهة بدأت تحرك شفتيها وكأنها جائعة. ابتسم روس عندما تذكر كيف انها كانت تلتهم الحليب المكثف، فمشاهدته للطفلة قد منحته شعوراً بالراحة والسرور، وهو شعور قد فاجأه للغاية، فهو لم يكن يحب ان يرى طفلاً يتعذب، لكنه لاحظ ان هذه الطفلة قد تسللت إلى قلبه بالفعل.

وبالعودة إلى المطبخ، فقد تأكدت كاثلين من انها استطاعت ضبط نفسها. وبينما هي تغسل الصحون المتسخة، كانت تحاول اقناع نفسها بأن روس دوغلاس رجلاً لا يختلف عن غيره من الرجال فتنة ووسامة. لكن ذلك لم يكن يعني لها شيئاً، وعلاوة على ذلك، فأي رجل عادي قد يبدي اهتمامه بطفلة عاجزة، فهو لم يكن بطلاً أو مميزاً. كان رجلاً فحسب، يقوم بما يقوم به أي رجل في ظروف كهذه، لم يكن هناك من سبب على الاطلاق لتشعر بأنها منجذبة إليه.

تلاشت تلك الفكرة من رأس كاثلين في اللحظة التي دخلت فيها إلى غرفة الجلوس حيث كان روس جالساً إلى جانب الطفلة يسرح شعرها بلطف بأنامله. ومهما يكن من أمر المحاضرة التي كانت قد ألقتها على نفسها، فقد رق قلبها عندما شاهدت نظرة الخوف والحنان على وجهه.

قالت بمرح وهي تدخل الغرفة: «آمل انك تحب كعكة الحلوى بالشوكولا وعلى الطريقة الالمانية.»

لدى سماع صوتها، التفت روس ليرى أنها قد عادت، وفي هذه المرة، كانت تحمل صينية عليها كعكة الحلوى وصحنين.

قال معترفاً لها: «احب الحلوى بشكل غير معقول، وبالأخص الشوكولا بأنواعه.» قال ذلك وهو يراقبها وهي تجلس على الأرض إلى جانب طاولة القهوة.

أحست كاثلين ان عينيه تراقبانها، فارتعشت يداها وبح صوتها وهي تتكلم. «هل تبدو الطفلة على ما يرام؟»

رد قائلاً: «على حد علمي نعم.» وهو يبتعد عن الاريكة ليعود إلى الموقد، فقد كان يحس باضطراب، وهي حالة لم يألفها روس، فهو شخص يتأقلم عادة مع أي ظرف، لكن كان هناك أمر غريب حول السكون الذي يلف هذا البيت، وحول المرأة التي كانت جالسة على بضع خطوات منه وتثير اعصابه على مهل.

ثم خاطبها: «لقد جربت الهاتف، فهو لايزال معطلاً.»

نظرت إليه، وهي تومىء برأسها موافقة: «أعرف فقد جربت هاتف المطبخ، هذا ما كنت أريد ان اخبرك به.»

قال: «علينا ان نقوم بالأمر، دون هاتف.» واستدارت كاثلين إلى الطاولة لتملأ فنجان روس وفنجانها بالقهوة من جديد.

قالت له: «لو لم يكن الأمر متعلقاً بالطفلة، لما كان همني كثيراً، ان عمل الهاتف أو لم يعمل.»

«حسناً، اني لا احاول ان ابدو واثقاً من نفسي أكثر مما ينبغي، حاولت فقط ان اطمئنك.»

في تلك اللحظة لم تكن كاثلين واثقة تماماً على من هي بحاجة لتطمئن، على الطفلة أم على روس دوغلاس.

لو كانت الطفلة بحاجة إلى عناية تفوق العناية التي يوفرانها لها، لكان الهاتف قد ساعد كثيراً. وفي الحقيقة لو ان الهاتف كان يعمل، لتمكنت من الاهتمام بالطفلة أو بنفسها من دون ان تلجأ إلى روس دوغلاس.

ولو انها كانت في بيت روس الخاص، لما شعرت بتوتر مزعج، في كل مرة كان ينظر فيها إليها.

وبسرعة راحت تذكر نفسها، بأن الهاتف معطل، وبأنها بحاجة لروس كي يبقى من أجل الطفلة، وهل حقاً كانت تريده ان يرحل لو ان الهاتف كان يعمل؟

كان عليها الاعتراف بأنها اصبحت تحبه وتحب رفقته.

خاطبته متنهدة وهي تحمل صحن الحلوى: «اتمنى فقط لو اني استطيع ان اشعر بالهدوء مثلك حيال هذا الموضوع.»

اطرق روس مفكراً، تعتقد كاثلين انه هادىء لا بد انه ممثل لأنها كانت ترى انها في كل مرة تكون فيها على بعد خمسة اقدام منه، كانت احاسيسه تتوتر بشكل واضح.

تناول صحن الحلوى من يدها، وسألها: «هل أنت خبزت هذه الحلوى؟»

«أجل، خبزته هذا الصباح خصيصاً لحفلة الليلة.»

«شقيقاك على الأرجح، سيفوتان هذه الحلوى.»

حرص على ان يحول نظره عنها، وهو يرفع قطعة إلى فمه.

ضحكت كاثلين بلطف وهي تعود لتجلس على الأرض، وتقول: «لو أنت تعرفت بوالدتي، لكنت وجدت المكان مليئاً بالطعام، إلى جانب ذلك، فأنا في الحقيقة أشك في ان شقيقي ينشغل تفكيرهما بالطعام الليلة.

«قلت ان نك نقيب مدرب، ماذا يفعل شقيقك الآخر؟»

«انه مزارع، في الحقيقة الآن وقد تقاعد والدي، استلم سام أمر مزرعة غالاغر.»

«على ما يظهر، ان شقيقيك رجلان ذكيان وطموحان.»

«ووسيمان أيضاً، كي أكون صادقة معك، لا أعلم كيف ان كليهما بقيا عازبين لمدة طويلة.»

لم يكن روس يعرف كم يبلغ شقيقاها من العمر، وكم من الوقت بقيا عازبين، لكن حتى الآن فقد وجد ان من السهل عليه ان يبقى بعيداً عن التدخل فيما لا يعنيه.

سألها: «كيف كانا يتدبران أمرهما؟»

ارجعت كاثلين شعرها الطويل إلى الخلف وهي تفكر بالسؤال، ثم قالت: «في الحقيقة بقيت حبيبة سام لسنوات اربعة في افريقيا. لقد كانت عاملة اجتماعية في اثيوبيا، وهذه قصة كاملة بحد ذاتها. وعندما عادت إلى موطنها هذه السنة، عملت مع سام على تسويه خلافاتهما، وأدركا انهما

يحبان بعضهما حباً جنونياً.» ابتسمت للذكرى، ثم التفتت لترى أن روس كان يتقصد مراقبتها. وشعرت أن وجهها قد تورد خجلاً مثل مراهقة ساذجة.

«أما بالنسبة لنك.» تابعت قولها، وهي تحاول جهدها ألا تبدو متأثرة بهذا الرجل وبعينيه الرماديتين الباردتين. «لايزال الأمر صعباً بالنسبة لي كي اصدق انه تقدم للخطبة، فلطالما احب النساء مثلما يحب ان يملي الأوامر. لكن...» وهزت بكتفيها وهي تبتسم ابتسامة مراوغة، غيرت ملامح وجهها: «يبدو ان أليسون قد غيرت كل ذلك. لم أره مطلقاً مفتوناً بامرأة، طبعاً فقد تفتن بها انت أيضاً إذا ما صادفتها.»

«هل هي جميلة؟»

«فاتنة، شعرها اشقر يتدلى على ظهرها، وبشرتها ناعمة، وخصرها نحيف، لو أرادت غالبية النساء الحصول على خصر مثله، لتوجب عليهن القيام بتمارين قاسية، لكن ليست أليسون، لأن خصرها طبيعي، كنا افضل صديقتين في الجامعة أنا اوليفيا ودائماً كنت اشعر أني لست بأناقتها.»

ابتسم روس بصمت وهو يراقبها تأخذ قطعة من الحلوى. كان عليه ان يخبر كاثلين غالاغرهايز بأن ليس لديها ما تقلق عليه من حيث مظهرها، فهو لم يكن يتصور ان أية فتاة كانت ستبدو اجمل منها، وهي جالسة على الأرض، فقد بدت له صورتها في أوج تألقها.

«إذن، أنت تحبين الفتاتين؟»

«آه، احبهما، فهما بالنسبة لي مثل شقيقتين طبعاً، لأني

اعرف اوليفيا منذ سنوات، في حين انني لم استغرق وقتاً طويلاً لكي اتقرب من اليسون. في الواقع، كنا صديقتين من قبل ان تتعرف على نك، انها شابة قوية. قد لا تجد الكثيرات ممن يعرفن كيف يتدبرن لوحدهن أمر القيام بتربية طفل دون مساعدة من الغير، كما حصل مع أليسون.»

كان روس يفكر بما تقوله كاثلين، عندما استدارت لتواجهه. «انها أم ارملة.» شعرت كاثلين انها مجبرة على القول. «وكما ترى فإعجابي بها بقدر محبتي لها.»

«ماذا حصل للوالد؟»

اطبقت شفتيها بحزن، ثم قالت: «لقد توفي في حادث سيارة على الطريق السريع.»

قال روس: «يبدو ان نساء شقيقيك قد تعرضتا لصدمات قاسية.»

اومأت كاثلين برأسها موافقة، ثم اشرق وجهها بابتسامة. «حسناً، استطيع القول ان لا صدمات بعد الآن، فنك يعشقها واليسون تحبه أيضاً على ما يظهر، استطيع ان اتنبأ لهما بحياة رائعة في المستقبل القريب.»

كان واضحاً لروس ان كاثلين رومنطقية النظرة. ويبدو ان فقدانها لزوجها لم يغير اعتقادها في ان الحب والزواج مساويان دوماً للسعادة. «إذن متى تزوج سام؟»

«من الواضح ان ذلك حصل من حوالي الشهر.»

تابعت بمرح: «كان لدينا عرس في المزرعة، نك واليسون التقيا قبل أسبوعين في العرس!»

هز رأسه ساخراً، وقال: «لا بد انه كان حب عنيف فوري.»

«فوري.» وافقته القول، ثم تابعت: «فقد اتما خطوبتهما قبل عودة سام واوليفيا من شهر العسل. فعندما تحب بعنف لا تعود تفكر بالذي حولك.»

لم تكن تدرك كاثلين ان ضحكتها قد اصابت روس بارتعاش فقد تنفس بعمق، مجبراً نفسه على عدم الالتفات إلى كاثلين، لكن عينيه رفضتا الانصياع وبقيتا تحدقان في وجهها.

الفصل السادس

كان قد عاد ذلك الدلال المزعج إلى صوتها، لكن تلك الابتسامة الصغيرة على شفتيها كانت بالتأكيد لغز من الألغاز، جعلت منه غير قادر على تقييم سؤالها أكان تحدياً، أو دعوة له. لكنه في قرارة نفسه فضل الاختيار الأخير. لكن التفكير بتلك الطريقة كان قد زج روس سابقاً في متاعب لأكثر من مرة في حياته.

كان قد اشاح بنظره عنها، لكن ليس قبل ان تلحظ كاثلين تلك الابتسامة العريضة تملأ وجهه، لم يكن يدرك في تلك اللحظة كم كان بألاعيبه الصبيانية محبب اليها.

ثم قال: «اظن انه لأمر فيه من الصواب، ان الانسان قادر على تعلم شيء ما في كل يوم.»

كانت كاثلين تحاول جاهدة منع نفسها من الضحك بصوت عالٍ، وتساءلت من كان روس يمازح؟ رجل مثله لا بد انه عرف نساءً في ماضيه. وعلى الأرجح، العديدات منهن.

وراحت توبخ نفسها بصمت، حتى لو ان الرجل عرف نساءً في ماضيه، فذلك لا يعني بالضرورة انه وقع في حب احداهن. وغريغ كان قد اثبت لها ذلك الأمر بوضوح ومرارة، كان يحب المرأة، لكنه لم يكن ليقع في حبها.

قالت بصوت اختفت فجأةً منه العاطفة: «إذن اظن انك تحسب نفسك محظوظاً.»

www.elromancia.com

كان روس يحسب نفسه محظوظاً لأنه تجنب حالة الوقوع في الحب، إذن لِمَ عليه ان يزعج نفسه بالاعتراف به لهذه السيدة؟

«هل تحاولين ان تسالينني ان كنت قد قمت بشهر عسل.»

ان تبلد احساسه قد بعث لوناً زهرياً في خديها، لكنها على الرغم من ذلك، أبقت عينيها مسمرتين في عينيه، وقالت: «كلا ليس عليّ ان اسأل. إذ يبدو عليك مظهر الشاب الذي لا يرتبط.»

نظر روس إلى نفسه، وكأن شيئاً في مظهره قد فاته ان يراه. «أي شيء بي يجعلني أبدو كذلك؟»

لم تكن كاثلين تطمح في أن تغوص في حديثها معه، وبما ان الأمر قد حصل، فقد عزمت على ان تتناول الموضوع بسلاسة، وبعد ان ابتسمت له، قالت: «كل ما فيك يدل على ذلك.»

مجرد ان انتبه إلى انها تنظر إليه عن قرب نظرة لا تشوبها أية عاطفة، فقد اثار هذا الأمر فيه افكاراً غريبة. «حسناً، إني لم أتزوج على الرغم من أني ذات مرة كنت على وشك ان افعل، أو اقلها، اني اعتقدت بأن العلاقة تتطور إلى الزواج، لكن هذا الأمر لم يحصل.» ثم قال وهو يفكر بتلك المرأة التي خذلته عندما عرفت بأنه قد تخلى عن مهنته كلاعب بايسبول. «تلك التجربة قد فتحت عيني، منذ ذلك الحين لم اعد ارغب في ان ارتبط بأية امرأة، اكان بالزواج أو بأي طريقة أخرى إلى حد ما.»

إذن، لقد خاض تجربة علاقة فاشلة أيضاً، فكرت متأملة

بصمت، لم يكن امراً غريباً، انه أراد ان يهجر تكساس ويبدأ حياة جديدة في مكان جديد، اجابته بتأكيد لا تردد فيه: «أنا أيضاً لا أرغب في الارتباط بزواج.»

نهضت وتقدمت نحو الطفلة، وكان روس يراقبها وهي تنحني فوق رأسها وتمرر أصابعها فوق حاجبيها، قال لها: «إني لا أفهم لكن يبدو انك متحمسة لزواج شقيقيك.»

بعد ان شعرت بارتياح كون الطفلة كانت نائمة نوماً طبيعياً هادئاً، وتتنفس تنفساً منتظماً، وقفت كاثلين ثم رمقت روس دوغلاس بنظرة جانبية.

«اني متحمسة جداً لزواجهما، واوليفيا، تلك المرأة العزيزة على قلبي تستحق كل ذرة سعادة يمنحها شقيقي إياها.»

«هم، اظن ان هناك شيئاً قد فاتني، أو أني لا استوعب الأمر، فأنت متحمسة لزواج شقيقيك، وفي اعتقادك انهما سيسعدان. لكنك لا تفضلين الزواج لنفسك.»

«هذا صحيح، أترى، ما من شيء قد فاتك.» ثم تمشت في الغرفة باتجاه النافذة واشاحت عنها الستائر.

بقي روس محدقاً اليها، ولم يزل غير واثق من انه سمعها جيداً، على الرغم من انه لم يعرف لما قد صعقته بإجابتها على هذا النحو.

لأنها على ما يبدو رومانسية التفكير، فكانت كلما تحدثت عن زواج شقيقيها، لمع بريق في عينيها لا شاهد له.

بقيت كاثلين تنظر إلى خارج النافذة، فقد استحال

الجليد ثلجاً، وتغطت الأرض بسجادة سميكة بيضاء، وراحت كاثلين تسأل نفسها، لو لم يكن الطقس على ما هو عليه الآن، لكانت احتفلت مع عائلتها الليلة، ومن المرجح، انها ما كانت التقت بروس دوغلاس، ولكانت قد قرأت نبأ وجود الطفلة في رواقه في جريدة الصباح. فهل كان الحظ يلعب لعبته معها؟ وهل أرسل الجليد والثلج فقط، لتكون في منزلها الليلة؟

نظرت من حولها فوجدته يراقبها، وقد بدا على وجهه تعبير هادىء متأمل، ثم خاطبته: «لقد تزوجت مرة ولا أظن انني سأجد السعادة في زواج ثانٍ.»

لاحظ روس ان ثمة اشياء كثيرة استطاع ان يقرأها في عينيها، لكنه حاول بسرعة تجاهلها، فحياة كاثلين هايز لم تكن من شأنه، في الحقيقة فهي مثيرة للمتاعب. لقد احس بذلك بسهولة كاحساسه بالدفء المنبعث من الموقد. لكن هناك الطفلة التي يجب التفكير بشأنها، لم يرغب في تركها، كما انه لم يكن يرغب بترك كاثلين لوحدها مع الطفلة.

وخاطبها بالقول: «احسب ان فقدان زوج قد يخيب أمل الطرف الآخر.»

لن يستطيع ادراك مدى خيبة أملي، قالت في نفسها، لأن روس دوغلاس لا يعلم بأنها قد فقدت زوجها من وقت طويل سبق حدوث الحادث الذي أردى بحياته.

ووجدت نفسها تخاطبه: «كان قد قتل في طقس كهذا، في طائرة كانت تحلق فوق جبال بوسطن، كان غريغ طياراً ماهراً، لكن على ما يظهر، تعطلت احدى

المحركات، والثلج كان يهطل بغزارة ما أدى إلى احتجاب في الرؤية.»

ابعد روس عينيه عن وجهها المتألم، وقال: «لم يسبق ان فقدت شخصاً مقرباً إليّ، حتى انه لا يوجد الكثير من الأشخاص الذين يرغبون بأن تربطهم صلة قرابة بي.

وفيما هي تفرك ذراعيها لتزيح عنها قشعريرة البرد التي ألمت بها، تنحت كاثلين عن النافذة وتقدمت لتقف على بضع خطوات منه. «إني اشك في ذلك. عندما يكون لديك عائلتان، فأنت تحظى بالكثير من الأقرباء.»

لوى روس شفته وقال: «لنقل ان لدي اقارب. لكن الجزء الحميمي من القرابة.. لأمر قابل للتساؤل.»

انحنى إلى الأمام ووضع الصحون الفارغة على طاولة القهوة. «حين كنت في المطبخ، كنت افكر بأمر الطفلة.»

«ماذا بشأنها؟»

«تحتاج لأن نطلق عليها اسماً ما، ام اننا سنبقى نطلق عليها اسم الطفلة؟» قابلت كاثلين نظرته الجانبية لها بنظرة متسائلة، وسألته: «لا نملك الحق في ان نسميها، أليس كذلك؟»

«من لديه حق افضل؟ نحن والدها في الوقت الحاضر. إلى جانب ذلك، فأنا لا اتحدث عن اسم شرعي، يمكننا ان نعتبر ان من حقنا ان نسميها، في الوقت الحاضر.»

تحول نظر كاثلين عن وجهه إلى وجه الطفلة، التي بدأت تتلوى وتستيقظ، وأجابت: «حسناً، احسب أن الأمر لا يؤذي، وان هي وقعت في أيدي السلطات المختصة فسنلقبها بالطفلة دي يو، أو اسماً سيئاً مماثلاً.»

«أنت على حق، إذن ماذا سنسميها؟»

ابتسمت كاثلين ورقّت ملامح وجهها، وهي تحاول الجلوس بجانب الطفلة، وتقول: «لا أدري، ان تسمية طفلة شيء لم اقم به من قبل.»

نظر روس إلى الاثنتين معاً، ثم أجابها: «وأنا أيضاً...»

«أليس من عادة الناس ان يسموا اطفالهم بأسماء اقربائهم، البعض منهم يفعل، اما أنا فقد اطلقوا علي اسم خالتي لأمي، وماذا عنك؟»

«لقد سموني باسم جدي لأبي، وكان جندياً خلال الحرب العالمية الأولى، كما كان مولعاً بالنساء.»

استطاعت كاثلين ان تسمع نغمة حنو في صوته، ثم التفتت اليه وقالت: «اظن انك كنت مقرباً إليه.»

هز روس رأسه موافقاً وأجابها: «نعم، عاش حتى التسعين، كان يشرب كوباً من الماء الفاتر صباح كل يوم ويقرأ في الكتاب المقدس كل مساء بعد العشاء.»

«آه، طبعاً.»

«انه لشيء أكيد، ان فتاتنا الصغيرة، لا اقرباء لها لتسمى باسمائهم، حسب معرفتنا.»

أخذت كاثلين تتفحص وجهه المتجهم، وهي تقول: «احسب انك لست رجلاً متسامحاً.»

اتسعت حدقتا عينيه عندما لاحظ انها تتوقع منه ان يكون متسامحاً، فأجابها: «أرى من الصعب جداً تصور احدهم وهو يلقي بطفلة في العراء في مثل هذا الصقيع.»

«أفهم تماماً كيف تشعر، يساورني نفس احساسك بالرغم من محاولتي التغلب على هذا الشعور.»

قال: «لِمَ تحاولين التغلب على ذلك الشعور.»

حاولت كاثلين ان تجد سبباً يبرر اقدام احدهم على ترك طفلة على عتبة بيت، فردت: «ليس بأمر مصيب ان نحكم على الآخرين، خاصة ان كنا نجهل ظروفهم.»

اختفى ذلك التعبير الساخر عن وجهه عندما اقتنع بقول كاثلين. «من الواضح انك امرأة طيبة القلب، لكنك على حق بما يتعلق بالحكم على الآخرين.»

«لا أريد ان أدين من تخلى عن الطفلة، لكن أريد ان اعرف لم قد تخلى عنها.» تقدم روس من الكنبة وجثم بجانب كاثلين والطفلة.

سمحت كاثلين لنفسها بأن تتفحصه للحظة من قريب. وهو ينحني برأسه نحو الطفلة، استطاعت رؤية شعره الأسود وقد قص قصيراً، فيما عدا الجزء الأمامي منه الذي انسدل على جهة واحدة من جبهته بتموجات غير منتظمة، اما بشرته فكانت ناعمة لكنها خشنة البنية، وقد ظنت بأنه سيفقد من سمرته التي لوحتها الشمس لاسيما وانه انتقل إلى الشمال.

قالت محاولة أن تبتعد عن افكارها الشاردة: «فلنعد إذن إلى الطفلة، هل فكرت في إسم لها؟»

صوب نظره نحو وجه الطفلة، وقال: «في الحقيقة لا، في كل مرة انظر فيها اليها، ابقى افكر عن مدى الصدمة التي شعرت بها، حين وجدتها في الصندوق. انها أتت، بالتأكيد، في ظروف غير عادية، وغني عن الذكر، في أسوأ عاصفة جليدية، على ما أنكر.»

اقترحت كاثلين: «همم... ناهيك عن الجليد والثلج، فهذه

الفتاة الصغيرة قد خلقت عاصفة بحد ذاتها، انها لا تعلم بالأمر، إذن يمكننا ان نسميها ستورمي.»

نظر روس إلى كاثلين وغطت وجهه ابتسامة عريضة. «نعم... احب هذا الاسم.» ثم نظر نحو الطفلة، وتابع: «ما رأيك، ايتها الصغيرة؟» وما ان سمعت الطفلة نبرة صوته، حتى تغير لون وجهها، فغدا اكثر احمراراً، وفي غضون ثوان، كانت تصرخ بعنف.

«لا بد انها تكره الاسم.» قال روس ذلك بابتسامة خافتة.

ازاحت كاثلين البطانية عنها، وبسرعة اكتشفت بأن ستورمي الصغيرة بحاجة لتغير حفاضها.

«انها لا تفهم شيئاً مما تقوله، الآن بالذات، لا يهمها بأي اسم ستناديها. فهي تحاول أن تطلب منك أن تغير حفاضها.»

«أنا؟» سأل روس متعجباً: «وماذا عنك أنت؟ فأنت الأم هنا.»

ضحكت في داخلها من هذه المزحة وتابعت كلامها بمرح: «وأنت الأب، في ايامنا هذه، الآباء يقومون بتغيير الحفاض.»

قال وهو يرفع كيفيه عالياً: «لا يمكنك أن تتوقعي مني ان اكون والداً في هذه اللحظة، وان ألم بمثل هذه الأشياء.»

«لِمَ لا؟» سألته كاثلين، وقد وجدت ان احجابه بذلك الشكل كان مسلياً اكثر من أي شيء آخر.

«حسناً، نعم لكن ذلك مختلف. فأنت امرأة ومثل هذه الأشياء تأتي معكن بالفطرة.»

ظهرت غمازتان على جانبي فمها وهي تحاول ان

تخفي ابتسامتها، وتقول، احرص على حمايتها، في حين اذهب لأحضر حفاضاً من المطبخ.»

بسرعة نهض روس واقفاً على قدميه، وعلى الأثر احدثت ركبتاه صوت طقطقة.

«انهما ركبتا القاذف.» قال وهو يشرح لها وقد رآها تلتفت إليه، وتابع: «انهما تتشنجان باستمرار... آه، دعيني احضر لك الحفاض.»

غادر الغرفة بخطوة سريعة. ضحكت كاثلين بنعومة، ثم خاطبت الطفلة: «سوف لن يهرب منك الرجال، يا ستورمي. فعندما تكبرين وتصبحين جميلة جداً سيلاحقونك، وأنا لي والدين وشقيقين يحمياني.»

ومجرد ان تذكرت عائلتها، اختفت الابتسامة عن شفتيها، لطالما حلمت بأن تمنح والديها حفيداً، خلال تلك السنوات القليلة الماضية، كان عليها ان تواجه حقيقة ان تلك الأحلام لن تتحقق ابداً، لقد ظنت انها قد تأقلمت مع واقع عدم انجاب طفل. والآن وهي تحمل هذه المولودة بين ذراعيها وفي منزلها، عاد اليها حنينها القديم.

«ها هي هنا... احضرتها... كلها.»

نظرت كاثلين حولها لترى روس وقد عاد بالحفاضات. ولدى ملاحظتها ان غشاوة تغطي عينيها، غمزت بهما وعملت وسعها لترسم ابتسامة على شفتيها.

قالت وهي تتناول حفاضاً: «اشكرك.»

«هل سيرك إلى المطبخ اراح ركبتيك؟»

«ركبتاي؟»

«أنت تعرف، مشكلة ركبتيك.» حاولت ان تذكره، ثم

تابعت: «آمل انك لم تؤذ ركبتك المجروحة، عندما كنت تتسلق الجبل.»

جلس في كرسي قريب كانت موضوعة على بعد زاوية منها ومن الطفلة، قال متأثراً باهتمامها به: «لا، ركبتي بخير، حين كنت في الثامنة من عمري، كنت اقضي كل صيف جالساً القرفصاء. احياناً، تتوقف ركبتاي عن الحركة، عندما ارغب في مدهما.»

نشرت قطعة القماش أمامها وطوتها بشكل مستطيل صغير. ثم قالت: «لطالما تساءلت ما الذي يبقي أخي نك يحرك ساقيه باستمرار. فهو يقوم بالكثير من السير والركض مع فرقته.»

وبطرف عينيها استطاعت كاثلين ان ترى روس وهو يضع رجلاً فوق أخرى، ويريح رأسه على مؤخرة الكرسي.

عندما انتهت تقدم روس وجلس القرفصاء بجانب كاثلين والطفلة.

أدارت كاثلين رأسها فوجدت وجهه قريباً جداً من وجهها. وعندما تلاقت العينان خفق قلبها خفقة صغيرة سرعان ما تحولت إلى خفقان سريع.

«نحن، آه... لا نعلم كم سيدوم الثلج والجليد، وجل ما نعلمه ان علينا ان نكون بمثابة والديها لعدة أيام.»

«عدة أيام؟» لم يكن روس قادراً ان يعرف ان كان سيبقى على قيد الحياة لعدة ايام، وهذه المرأة إلى جانبه.

لقد اثارت فيه ظنوناً لم يكن حرياً به ان يفكر بها، وان يقدم بأفعال غير راضٍ عنها.

«لا اعرف أي شيء عما يتطلبه الرجل كي يكون والداً.»

قال ذلك وعيناه تتفحصان ملامحها الباهتة. كانت رموشها سوداء كثيفة، وطويلة بما يكفي لتبدو كأنها مستعارة، لكن روس تيقن انها ليست بمستعارة، فكل ما في هذه المرأة اصيل وجميل.

اجابته وهي تبتسم: «وأنا لا اعرف كيف أكون أماً.»

«اظن اننا نستطيع ان نتعلم معاً... فلنأمل اننا نقوم بالأمر على الوجه الصحيح.» قال ذلك وعيناه تستقران على شفتيها. وفجأة، استدارت كاثلين ناحية الطفلة، وهي منقطعة الأنفاس.

قال بسخرية: «لا بد انك ذات شأن في غرفة صفك، أراهن ان تلاميذك قد تعلموا الكثير، حتى من لا يرغب منهم في التعلم.»

«أحب ان أفكر انهم قد تعلموا شيئاً ما.»

من طرف عينه، استطاع ان يرى كاثلين تبتسم. من الواضح انها شعرت بالسرور لمحاولاته مساعدتها في الاهتمام بالطفلة، وقد منحه ذلك شعوراً بالرضى.

أي رجل لا يرغب في اسعاد امرأة جميلة مثل كاثلين؟

كانت كاثلين قريبة جداً منه حتى ان عطرها ملأ أنفه، ولمسة من يدها الناعمة على يده، جعلته يتخيل نعومة ملمس وجهها.

لاحظت كاثلين ان اصابعها كانت مازالت مشبوكة بأصابعه.

بم كانت تفكر؟ لم كانت تشعر بتلك الأشياء؟ اصابتها هذه الأسئلة بخوف شديد، شيء لم يكن له علاقة بالعاصفة الجليدية أو بالطفل.

وبسرعة هبت من مكانها وقالت: «اظن... آه... أنت راقب الطفلة، ولنا اذهب لأدير التلفاز، لنرى ان كنا نستطيع التقاط نشرة الطقس.»

بعبوس حائر، أخذ روس يراقبها وهي تتقدم في الغرفة ومن ثم تدير تلفازاً كبيراً، وقد شعر بأنها كانت على وشك ان تقول شيئاً آخر.

انسى الأمر، فكر بالعاصفة، وبالطفلة أو بأي شيء سوى كاثلين هايز.

الفصل السابع

وعلى شاشة التلفزيون، أذاع مذيع نشرة الطقس بأن الثلج سيتساقط خلال الساعات المتبقية من الليل، مع انجلاء بعض الغيوم خلال الفترة الصباحية، وارتفاع في معدل درجات الحرارة لليوم المقبل بمعدل ٢٠ درجة.

وعندما توقف الارسال لبث اعلان، نظر روس إلى كاثلين وقد كانت تجلس على الأرض بالقرب من الموقد.

سأل: «ماذا سيحل بنا؟ ان اثلجت طوال الليل، قد لا أتمكن من الوصول إلى الطريق العام، أو بالأحرى إلى المدينة.»

حولت كاثلين نظرها عن شاشة التلفزيون، إلى حيث كان روس يجلس وهو يراقب الطفلة، وبالرغم من ان ستورمي كانت نائمة، فكان واضحاً، انه أراد ان يبقى قريباً منها، وكأن بقاءهم معاً والثلج يتساقط قد زاد من تعلقه بها.

أجابته: «لا اعلم، لكن لدينا قسم مختص بالطرقات العامة ويقوم بمهامه على مدار الساعة، وإذا ما عزل الثلج الناس فان الأمر قد لا يستمر لمدة طويلة.»

نهضت كاثلين وتوجهت ناحية الهاتف، رفعت السماعة إلى أذنها ووجدت الخط ما زال مقطوعاً، وتساءلت عما ستقوله عائلتها، عندما يصبح بإمكانها اعلامهم بنبأ ستورمي الصغيرة، فأقلها ستكون صدمة بالنسبة لهم.

«لايزال الخط معطلاً.» خاطبت روس وهي ترى على

وجهه نظرة من يتوقع ذلك. وهو يئن مرر يده المتعبة فوق وجهه، وسألها: «على أي حال، ما الوقت الآن؟»

رفعت كاثلين كم كنزتها عالياً لتنظر في ساعة يدها: «إنها الثانية عشرة تقريباً، وعلى وشك ان تحل السنة الجديدة!»

في الطرف الآخر من الغرفة كان يوجد مقعد طويل، وضع امام التلفزيون، أومأت كاثلين اليه، فلنذهب اليه قد تكون إحدى المحطات تقوم بعد عكسي حتى منتصف الليل.

وبدأت كاثلين تقلب محطات التلفزيون.

«آه، انظر هذه المحطة تعرض مشهداً في نيويورك!»

«لم اكن اتوقع ان اجلس مع امرأة جميلة الليلة.» خاطبها بذلك وعيناه الرماديتان الدافئتان مسمرتان على وجهها المبتسم.

لمعت عيناها الخضراوان وهي تنظر اليه: «آه، لا تقل لي انك مجامل تماماً مثلما أنت منقذ.»

لاحت مسحة من لون على وجهه الأسمر، لم يستطع ان يعرف لم قد سمح لتلك العبارة الصغيرة في نهاية حديثه بأن يزل بها لسانه، لكن في اللحظة ذاتها لم يعط الأمر اهتماماً، كاثلين كانت امرأة جميلة وابتسامتها له لم تكن تماثل ابتسامة أي امرأة أخرى، أجابها: «إني بالكاد أكون منقذاً، فأنا مجرد رجل وجد طفلة.»

هزت كاثلين رأسها، وقالت: «انك متواضع جداً، وحسب توقعي للأشياء، ما توقعت رؤية رجل غريب وطفلة هذه الليلة وفي منزلي!»

كما انه لم يتوقع ان يجد امرأة مثلها في هذا المنزل، أو أي مكان آخر، لكنه احتفظ بفكرته لنفسه.

تابعت كلامها بعد قليل: «لما استطاعت ستورمي أن تبدأ حياتها في هذه السنة الجديدة.» وهي تهمس كلماتها، فجأة ترقرقت عيناها بالدموع.

كانت عيناه مسمرتان على وجهها الآسر، فيما كان يسري في داخله احساس من الكبرياء، والفرح والرغبة. لم يشعر في حياته قط بما شعر به في هذه اللحظة. وقبل ان يدري ما يفعله، مد يده ودفعها نحوه.

لم تدر كاثلين أياً من الشيئين قد صعقها قبل غيره، تقبيله لها، أو احساسها بذلك الشعور الجميل.

في هذه الاثناء كانت افكار كل منهما قد تلاشت في غياهب النسيان.

همست كاثلين بنفس منقطع: «سنة حلوة يا روس دوغلاس.»

قال: «اظن انه منتصف الليلة.»

حدقت كاثلين في التلفزيون حيث رأت الناس يصرخون بأعلى اصواتهم ويهنئون بعضهم البعض ويغنون اغنية.

«نعم ولت سنة قديمة، والآن تبدأ سنة جديدة.»

لم تكن تعلم ما كان يحصل لها، واطرقت تفكر، وهي تغرق في مقعدها بوهن، فهي لم تختبر مطلقاً في حياتها مثل هذا المزيج الغريب من الاحساسيس. فقد كانت سعيدة، مرتعشة، وزيادة على ذلك، شعرت بانجذاب نحو روس، ولم تلحظ اعجابها برجل مطلقا سوى الليلة، وراحت تفكر كان كل شيء يحدث بسرعة وكانت عواطفها تجيش في داخلها مثل قوس قزح.

أحس انها تحاول الابتعاد عنه، قد تكون قد ندمت على تلك القبلة، حسناً، وهو كان نادماً أيضاً، لأن روس كان يعلم ان قبلة واحدة قد يكون من الصعب جداً نسيانها. قال لها مقترحاً: «لقد اصبح الوقت متأخراً، ولا بد انك متعبة، سأبقى مع الطفلة، اعتقد اني اصبحت اعرف ما يتوجب علي ان اقوم به الآن.»

اومأت كاثلين برأسها بسرعة، وأجابت: «لا يمكنني ان اتركك معها، أنت اذهب إلى الفراش، توجد أربع غرف، اختر غرفة لك، باستثناء آخر غرفة إلى اليمين فتلك هي غرفتي.»

طأطأ روس رأسه، وقال: «لا استطيع، لكن افعلي ما يناسبك.» بالرغم من ان كاثلين كانت متعبة، إلا انها كانت تدرك انها ان أوت إلى الفراش، فلن يغمض لها جفن، وبالتأكيد مع كل ما كان يجول في خاطرها.

كانت ستورمي لاتزال نائمة، وقبضة يدها الصغيرة قد رفعت إلى فمها.

وباندفاع تلقائي، سوت كاثلين البطانية على الطفلة، ثم همست: «ليلة سعيدة يا صغيرتي، سنبقى أنا وروس هنا لنحرسك.»

لم تكن كاثلين تعلم أي الاثنين ايقظها قبل الآخر، صراخ الطفلة ام رنين جرس الهاتف، وفي الوقت الذي كانت تحاول فيه ان تفتح عينيها وترغم نفسها على الجلوس، رفع روس ستورمي وحملها إلى المطبخ، ثم خاطبها من فوق كتفه: «أنت اجيبي على الهاتف، وانا سأسخن لها زجاجة الحليب.»

هرعت كاثلين إلى الهاتف، وهي شبه خائفة من ان يقطع المتصل الخط، فتفقد اتصالها بالعالم الخارجي.

«آلو.»

«صباح الخير، كاثلين، كيف تسير الأمور في الجبل؟»

«سام، آه، يا سام، سرني سماع صوتك، لن تصدق ما حصل!» وبدأت تقص عليه القصة بكاملها، وانهتها اخيراً، بأن روس قد اخذ الطفلة لتوه إلى المطبخ ليحضر الحليب.

«روس؟ تعنين ان الرجل معك الآن؟ تسمحين لرجل غريب لا تعرفينه بقضاء الليلة في منزلك؟ كاثلين هل جننت ام ماذا؟ أنت لا تعرفين اين قد وجد الطفلة! قد يكون اختطفها.»

كم بدا قول شقيقها غريباً عن انها لم تكن على معرفة بروس، لقد بدا بالنسبة إليها وكأنها تعرفه منذ زمن طويل. لكن سام لن يفهم ذلك، فقد كان لسام اسلوبه الخاص في فهمه للأمور، واجابت بذبول: «بالطبع يا سام، على الأرجح انه فعل كي يأتي بها إلى هنا.»

تنهد شقيقها تنهد المستسلم. وقال: «اظن انك على حق، يا كاثلين، من حسن الحظ إننا لم نعلم بالأمر ليلة البارحة، وإلا لكنت قلقت عليك.»

«طبعاً، انا على حق، وبالاضافة إلى ذلك فروس جاري وقد انتقل إلى حي مابري الذي يقع في آخر الطريق من هنا.»

«نعم، أنكر ذلك، إذن ماذا ستفعلين الآن؟»

«حسناً، لقد حاولنا الاتصال بالسلطة المختصة، لابلاغهم عن كل شيء، لكن هاتفي كان معطلاً، اظن ان بامكاننا الاتصال مجدداً الآن، وسنرى كيف سيكون ردهم.»

«نعم افعلي ذلك، على الفور، يا كاثلين، وقد يكون من الافضل ان تتصلي بباركر مونتغمري، قد تحتاجين إلى نصيحة قانونية فأنت لست على معرفة بمثل هذه الأمور.»

«أنت على حق.» اجابت كاثلين وهي ترفع شعرها عن جبينها إلى خلف، وتابعت: «سأقوم بالاتصال به أول الأمر، ومتى تمكنت من الاتصال بالسلطة المختصة وسويت الأمور، سأعيد الاتصال به واعلمك بما يحصل.»

«حسناً، لا تدعيننا ننتظر طويلاً، لأني حالما انهي مكالمتي، واعلمهم بهذه القصة، سيثور المنزل بكامله.» واستطاعت كاثلين تخيل المشهد كما هو.

«سأقوم بالاتصال متى استطعت.» وعدته بذلك ثم اقفلت الخط، واسرعت إلى المطبخ.

وجدت روس وهو لايزال يُطعم الطفلة، كانت قد بانت على وجهه خطوط ناتجة عن الإرهاق. لكنه بدا اكثر ارتياحاً مما كان عليه في الساعات التي اعقبت منتصف ليل الليلة الماضية، عندما غط نائماً على الأرض قرب الموقد.

بدل ان توقظه، غطته كاثلين ببطانية، ثم استلقت على الكنبة بجانب الطفلة. كان ذاك آخر شيء تذكرته قبل استيقاظها هذا الصباح.

«من ذا الذي يتصل في مثل هذه الساعة؟ انها لم تزل الساعة الخامسة فقط.»

توجهت كاثلين إلى ماكينة القهوة، وملأتها بالماء البارد، ثم أجابت: «انه أخي سام. اخبرتك انه مزارع، والخامسة صباحاً يبدو وقتاً متأخراً بالنسبة إليه.»

أخذ روس يتفحصها بعينيه من أعلى رأسها حتى اخمص قدميها، وإذ لاحظ قدميها، بدأ يبتسم، ويقول: «أرى انك قد نزعت الكعب العالي أخيراً.»

نظرت إلى قدميها المكسوين بجوربين، ثم التفتت اليه، لعلها كانت تبدو مخيفة، فشعرها اشعث ووجهها لا زينة عليه، أجابته: «اعتقد ان الاحتفال قد انتهى، هل ترغب بتناول الفطور؟ بعد ان حصلت ستورمي على حصتها؟»

«بالتأكيد، كانت جائعة، وانا كذلك، لكن من الأفضل ان نتصل بالشرطة قبل القيام بأي شيء آخر.»

أومأت برأسها وهي على وشك ان تنتهي من مزج مواد القهوة مع بعضها البعض، ووافقته قائلة: «سنجري الاتصال في حين ننتظر سائل القهوة ليتقطر.»

قام روس بسرد الحادثة التي حصلت معه إلى الشرطة في الدقائق المتعاقبة. ثم تناولت كاثلين الهاتف وسردت قصتها، وعندما طلب اليهم اخيراً ان يقطعوا الاتصال، قالت كاثلين: «لم يفاجئهم الأمر مثلما توقعت.»

«انهم ضباط في الشرطة، وهم معتادون على سماع ورؤية اشياء مفاجئة.»

«اظن انك على حق، لكن اتمنى ألا نضطر للذهاب إلى المركز، فنحن قد بلغناهم بكل ما نعرف.»

هز روس كتفه وهو يجلس إلى طاولة المطبخ.

«انهم بحاجة لرؤية الطفلة، كي يعرفوا اننا لم نقم بتركيب هذه الرواية، وانا واثق من انهم يريدوننا ان نسلمهم الطفلة.»

حدقت كاثلين به بذعر، وقالت: «هل جننت؟ لن اسلمهم

ستورمي!» نظر روس اليها عبر الطاولة ودهش عندما رآها ترتعد. سألها: «ماذا تعنين؟ انها تعتبر الآن يتيمة، وموضوعة تحت وصاية المحكمة.»

هزت كاثلين رأسها بعنف: «لا! لا اريدها ان تكون تحت وصاية المحكمة، فسيرسلونها إلى ميتم مكتظ بالاطفال، أو سيضعونها تحت وصاية والدين غريبين عنها! انها حديثة الولادة، يا روس، ولا تعرف سوانا. من الأفضل الاحتفاظ بها، على الأقل، لأيام قليلة، ألا تظن ذلك؟»

اذا امكننا الاحتفاظ بها، لم يسع روس سوى ملاحظة كيف انها شملته بحديثها، وكأنه سيستمر كطرف في هذه القصة بمجملها، ليلة البارحة وقبل ان يخلد إلى النوم راح يحدث نفسه بأن افضل ما قد يقوم به هو ان يسلم الطفلة إلى اصحاب الشأن، ومن ثم يعود ليتابع عمله الخاص، وينسى أمر ستورمي وكاثلين.

ولكن مع بزوغ الفجر، وهو محتضن ذلك المخلوق الصغير بين ذراعيه، كان يخالجه شعور داخلي بانه اصبح متحمساً اكثر من كاثلين لفكرة عدم تسليم الطفلة.

روس، أنت تفكر الآن بعاطفتك، ومثل هذا التفكير سيورطك في متاعب، وانت تدري ذلك! قال لها: «لا اعرف يا كاثلين في حالة طفل، لا اظن ان باستطاعتك تطبيق قانون من يجد شيئاً يحظى بما وجده.»

وفجأة، طقطقت اصابعها ووقفت قائلة: «لم اتصل بعد بباركر، بإمكانه اصلاح الأمور، فهو يعرف تماماً ما عليه ان يفعل.»

«من يكون باركر؟»

«باركر مونتغمري انه صديق قديم لي، وشاءت الظروف ان يكون أيضاً محام، فقد تولى كل شؤوني القانونية عندما قتل غريغ.» اخبرته بذلك وهي تتوجه إلى الهاتف الموضوع على طاولة الفطور. وبسرعة بدأت تبحث عن رقمه، وهي تتابع: «وله اصدقاء في مناصب مرموقة.»

عند الظهيرة، كانت الشمس مشرقة تبهر بأشعتها، وكان طاقم موظفي الطرق، قد عمل على إزالة الجليد عن الطريق العام، ليصبح سالكاً امام المارة، وكان روس قد سحب سيارته من الخندق وتوقف امام منزله، ثم دخل ليأخذ دوشاً، ويستبدل ثيابه بأخرى نظيفة، ولدى عودته إلى منزل كاثلين، كانت تنتظر جاهزة مع الطفلة ليقصدوا فورت سميث حيث مركز الشرطة.

كانت قد ارتدت تنورة مخملية وقميصاً يتناسب مع التنورة، وقد اظهر هذا اللباس خصرها الضامر، كما انعكس اللون الأحمر على سواد شعرها، ولاحظ روس انها كانت تضع احمر الشفاه أيضاً، ووجد صعوبة في حجب عينيه عنها، خاصة عن شفتيها اللتين كانتا تبتسمان له.

«اني مسرورة ان اراك وقد عدت في وقت قصير.» وسألته عما اذا كانت الطريق قد انجلى عنها الجليد، ويمكن اجتيازها بسلامة، وخاطبها بالقول: «هناك رقع كبيرة من الثلج في بعض الأماكن، لكن العمال قد فرشوها بالرمال، اضافة إلى وجود حركة سير الآن، فلا بد ان تكون الطريق سالكة.»

قدمت كاثلين اقتراحاً لروس: «علينا ان ننزل بسيارتي، فالاطاران الأماميان فيها يدفعان بقوة،

وبالتأكيد لا يهمني ان توليت انت القيادة. فأنا لا اجيد القيادة على الجليد.»

ابتسم لها ابتسامة عريضة ساخرة، وقال: «هل تظنين اني اجيد القيادة على الجليد؟ لو كنت قد رأيتني ليلة البارحة، لما طلبت مني ان اجلس وراء مقود سيارتك.»

اخرجت المفاتيح من محفظتها وقدمتهم له، وهي تقول: «اني أثق بك، سأخرج ستورمي ساعة يدور محرك السيارة.»

حين غادروا المنزل بعد مرور دقائق قليلة، لم يكن روس متحمساً للقيادة، فزلة خاطئة منه ويتسبب بأذى لكاثلين والطفلة، وسببت تلك الفكرة تشنجاً في معدة روس وهو يقود السيارة نزولاً وببطء على تلك الطريق الملتوية، ومن ناحية أخرى، بدت كاثلين مرتاحة تماماً، ومأخوذة بجمال الثلج، والطفلة بين ذراعيها.

خاطبت روس: «ياليت كان عندي ثياب تناسب ستورمي فالشيء الوحيد الذي وجدته كان قميصاً داخلياً منكمشاً لي، كان كبيراً بالنسبة لحجمها، لكني اظن انه يحل محل فستان طويل.»

«سنشتري لها بعض الأغراض فور انتهائنا من التحقيق مع الشرطة.» بذلك اجابها وهو يقود السيارة بحذر فوق الرقع الكبيرة من الثلج والجليد.

«اعلم انه لا ينبغي ان احملها في حضني خلال السفر، كان عليّ ان اوثق رباطها على مقعد السيارة.» اخذت تضرب باصبعها على ذقنها وهي غارقة في التفكير. «وعلي ان احظى ببعض زجاجات الحليب والحفاضات.»

التفتت إلى روس، وتابعت: «لم اتصور أبداً كم من الأشياء يحتاج اليها المولود الجديد!»

أدرك روس ان عليه تذكيرها بأن الطفلة ستبقى معها لفترة قصيرة من الوقت، لكنه لم يستطع قول ذلك، اذ انه رأى كيف كانت تضم الطفلة إلى صدرها، والحنان باد على وجهها في كل مرة تنظر اليها، لم تكن ترغب في التخلي عنها، وروس كان يعتريه شك بالنسبة للموضوع.

قابلهم محامي كاثلين في مركز الشرطة، كان في حوالي الأربعين من العمر، حسب تصور روس، وهو ذو شعر اشقر وعينين بنيتين كانتا ترقبان روس وتتفحصانه حيناً، وحيناً آخر كان يبتسم لكاثلين.

لم يكن بمقدور روس التكهن ما إذا كان قد احب الرجل أم لا، لكن بدت ثقة كاثلين فيه مطلقة، لذا تصور ان ذلك كان الأهم.

وحين انتهت مقابلتهم مع الشرطة، تمشى معهم المحامي حتى الموقف. وقال لكاثلين: «ليس عليك ان تقلقي بصدد أي شيء، فقد تكلمت مع القاضي لوتون، ووافق على السماح لك بحق الوصاية على الطفلة لحين يجدون لها عائلة تقوم برعايتها.»

انكمشت كاثلين في داخلها، وسألته: «كم سيستغرق الأمر من وقت؟»

هز المحامي رأسه: «هذا سيكون رهناً بالدائرة المنوطة برعاية الأطفال، وكم يلزمهم من الوقت ليجدوا لها البيت المناسب، على أية حال، قريباً يتصل بك احدهم، فلا تقلقي.»

طأطأت رأسها، لتعلمه انها فهمت قوله، وشكرته لأنه اعطاها من وقته كي يساعدها في يوم العيد.

بعد ان ودعاه ودخلا إلى السيارة، التفتت كاثلين إلى روس وقالت: «لا أرغب في ان تذهب ستورمي إلى زوجين لديهما عائلة كبيرة من الأطفال! اريدها ان تحظى بالعناية والاهتمام التي تحتاجهما.»

«كان عليك توضيح هذه النقطة للسيد مونتغمري.» اجابها بذلك وهو يدير محرك السيارة.

هزت كاثلين كتفها، وعبست قائلة: «أعرف، لكني لا اعتقد انه يفهم شعوري تجاهها، مثلما تفهمه أنت.»

«أنا أفهم شعورك؟»

جحظته بنظرة جانبية وهي ترتب البطانية حول وجه الطفلة، وتقول: «نعم، أنت تفهمني، تعرف اني احبها واريدها ان تبقى في بيت محب، وانت تملك نفس الشعور.»

أجاب بتعبير كئيب: «نعم، لدي نفس الشعور.»

خرج بالسيارة من الموقف إلى الشارع، لاحظ كاثلين وهي تضغط بخدها على خد الطفلة، وكانت الدموع تلمع في عينيها، وقد مزق هذا المنظر قلبه.

«آه يا روس، حين كانت الشرطة تحقق معنا، ويلحون على معرفة الأم الحقيقية، أردت فقط ان اصرخ في وجوههم، ان لا وجود لأم أخرى لها، وبأني انا أمها! هل من الجنون ان يساورني مثل هذا الشعور؟»

كان صوتها يرتعش، وأدرك ان الساعة التي انقضت قد هزتها اكثر من لو انها افشت سراً، فقال: «كلا ليس هذا بجنون، لكن...»

نظر اليها نظرة خاطفة، ومن ثم تمنى لو انه لم ينظر، لأن عينيها الخضراوين الدامعتين كانتا تحدقان به، وتترجاه بأن يمنحها بعض الاطمئنان.

تنفس روس بعمق، ثم قال: «انظري يا كاثلين، اظن انك ستتأذين ان سمحت لعواطفك بأن تتعلق بالطفلة، وقريباً جداً ستقولين لي انك ترغبين في الاحتفاظ بالطفلة لنفسك.»

كانت قد راودتها هذه الفكرة اكثر من مرة في الليلة الماضية، فلطالما كانت ترغب بطفل منذ وقت طويل. والآن وكأن الحظ قد تعمّد وضع طفلة في حضنها، وهذه الطفلة بحاجة لمأوى، وقد تكون هذه الطفلة من نصيب كاثلين وفرحتها الوحيدة في الحصول على طفل.

«لا اعتقد انني اخبرتك بذلك، لكنني منذ وقت طويل وانا أرغب بطفل.» مررت اصابعها فوق شعر الطفلة الأسود. وتابعت: «لم لا احتفظ بها؟»

«لا أدري يا كاثلين، لكنني اتصور كونك عزباء سيكون الأمر صعباً عليك برعايتها بشكل مستمر، اضافة إلى انه قد يكون لديها اقرباء آخرون يرغبون في الاحتفاظ بها.»

ضمت كاثلين الطفلة إلى صدرها: «آه، يا روس، تظن انهم سيأخذونها أليس كذلك؟»

«كاثلين، اريدك ان تفكري في كل الاحتمالات، ولا اريد ان يخيب ظنك.»

اخرجت كاثلين منديلاً من حقيبتها ومسحت عينيها بحذر، ثم قالت: «اعرف يا روس، وآسفة لأنني انفعلت. احسب ان الأربع وعشرين ساعة الماضية كانت بمثابة ضغط علي اكثر مما كنت اظن.»

«لم لا تنسي كل هذا الآن، فلديك حق الوصاية في الوقت الحاضر.» واقترح عليها بأن يأخذاها إلى طبيب كي يجري لها فحصاً عاماً ويشتريا لها بعض الحاجيات.

«أنت محق، اليوم تبدأ السنة الجديدة، فلنستمتع بهذا اليوم.»

«جيد قد ادعوك إلى عشاء في الخارج لاحقاً، لأوفيك حقك عن الافطار الذي حضرته لي.»

ارتفعت معنوياتها، وبدت ابتسامة سخرية على شفتيها...

الفصل الثامن

بلغ وزن ستورمي ستة باوندات ونصف الباوند، وأكد لهما الطبيب على انها بصحة جيدة، وأشار على كاثلين بوصفة غذائية للطفلة، كما قدم لها عدة كتيبات صغيرة تتضمن معلومات قد تساعدها. ترك روس وكاثلين العيادة الطبية وهما سعيدان ومرتاحان لحالة الطفلة الصحية.

وجدا مخزناً مخفض الأسعار، كان قد فتح ابوابه للزبائن في ذلك اليوم على الرغم من انه كان يوم عطلة، وبدأ الاثنان يملآن عربة التسوق بوجبات غذائية للاطفال، وبالحفاضات وزجاجات للحليب وعربة اطفال.

وعندما وصلا إلى قسم الملبوسات، بدأت كاثلين تضع في العربة انواعاً مختلفة من الألبسة، لكن روس لم يتفوه بكلمة كي لا يحزنها، فقد شاهدها لمرة ذلك اليوم وهي تبكي، وان كانت ستجد سعادتها في شراء ملابس للطفلة، فانه لن يفسد عليها ذلك.

وتم الاختيار على ان يتناولا طعامهما في مطعم قريب متخصص في وجبات من صنع منزلي، وبما انه كان ذلك اليوم يوم عيد، فقد قدمت فيه اطباق من الفاصوليا، ولحم، وخبز الذرة، بالاضافة إلى اطباق رئيسية.

قالت كاثلين لروس بإلحاح: «فلنأكل الفاصوليا، ليكون حظنا هذا العام سعيداً، ألا تؤمن بذلك؟»

«ان كنت تؤمنين بذلك، يا كاثلين، فسآكل الفاصوليا.»

www.elromancia.com

أعاد قائمة الطعام إلى النادلة، وتابع: «أنا اطلب طبقي مع قطعة من السمك المقلي.»

وقر رأي كاثلين على الطبق نفسه، وسألت النادلة ان باستطاعتها تحضير زجاجة حليب لستورمي، وافقت المرأة بلطف، وفي الوقت الذي كانا ينتظران فيه وجبتهما، أرضعت كاثلين الطفلة زجاجة الحليب.

وهي جالسة في مقعدها قبالة روس، والطفلة بين ذراعيها، اخذت تتساءل ان كان الشعور بعائلة حقيقية هو على هذا الشكل، العائلة التي طالما رغبت بها، فالطفلة لم تكن طفلتها، ولا طفلة روس، لكن لليلة فقط أرادت ان تتظاهر انها امرأة محبوبة من هذا الرجل الوسيم الذي يجلس قبالتها، ومقابل ذلك الحب، منحته ابنة جميلة.

حيث ان ستورمي انهت زجاجتها، قامت كاثلين ووضعتها في عربتها الجديدة، وعلى الرغم من انها لم تكن تزن شيئاً، فقد بدأ التعب يظهر في ذراعي كاثلين، وأدركت ان من الأفضل ان تسند جيداً رقبة وظهر الطفلة.

وصلت وجبة الطعام في الوقت الذي كان قد سوي فيه أمر الطفلة، واثناء تناولهما الطعام راحت كاثلين تحث روس على اخبارها المزيد عن نفسه، وقالت له: «اشعر وكأنك تعرف كل شيء يتعلق بي وبعائلتي، إذن، اخبرني انت شيئاً عنك، هل ترعرعت في سان انطونيو؟»

«بل في ضاحية المدينة، هل سبق ان ذهبت إلى هناك؟»

اومأت كاثلين برأسها، وقالت: «كلا، فقد زرت تكساس الشرقية حيث سيتقاعد فيها والدي ووالدتي في الربيع المقبل.»

«آه، حسناً.» قال وهو يقطع قطعة السمك إلى شرائح: «إذن عليك ان تزوريها يوماً ما، انها مكان جميل، ينبغي على كل انسان ان ينزل إلى ريفر ووك ليشاهد آلامو.»

نظرت إلى وجهه، ثم انخفضت نظرتها إلى كتفيه العريضين، كان يلبس قميصاً بني اللون، تتخلله خطوط سوداء رفيعة، ولو ان أي رجل آخر ارتداه، لكان بدا عليه بسيطاً، لكنه على روس فقد كان مثيراً بكل ما في الكلمة من معنى.

أجابته: «ربما قد اتمكن من زيارتها يوماً ما.»

أراد روس أن يقول لها ان بامكانه اخذها إلى تكساس، لكنه فضل الصمت، فقد سبق ان سمح لنفسه بالتورط مع هذه المرأة، اكثر مما كان يقصد.

سألته: «إذن ما حدا بك حقيقة للانتقال إلى هنا؟ عدا عن الفرصة التي توفرت لك لتحل محل رفيقك كمدرب!»

منذ ان تخرجت في الخريف الماضي، كان من الصعب عليّ إيجاد منصب تعليم، وعندما عرضت عليّ هذه الوظيفة، قررت ان هذه الوظيفة هي ما كنت ابحث عنه.»

«وعم كنت تبحث؟»

اشتبكت عيناه الرماديتان بعينيها عبر الطاولة، وعلى الرغم من انها كانت برفقته طوال النهار، فقد شعرت بارتباك من نظرته، كما حصل، صباحاً على مائدة الافطار.

«كنت ابحث عن مدرسة، حيث الأكاديميون فيها على قدر من الأهمية مثل الرياضيين، مدرسة تأخذ بجدية قدراتي التعليمية مثلما تقدر قدراتي كلاعب بايسبول، فالرياضة جزء كبير من العلم، لكن المعرفة أمر حيوي من أجل النجاح.»

«وعليك ان تعلم بأنك قد احطت بكل شيء.» وغرقت في التفكير، انه رجل شغوف بعمله، وراسخ الإيمان بما يفعل، تماماً مثل والدها وشقيقيها، وليس مثل غريغ الذي كان سهل الانقياد قابلاً لتغيير ما يؤمن به، خاصة إيمانه بأن المال تتنقل ملكيته من شخص إلى آخر.

«كثيرون من الناس يظنون اني مجنوناً لأنني اخترت التعليم بدل ان اختار مهنة تؤمن لي راتباً اكبر بكثير.»

قالت له: «المال ليس كل شيء، فزوجي السابق قد جنى الكثير من المال، كمية من المال لم أتعود على امتلاك مثلها من قبل، لكنه لم يكن سعيداً على الأقل معي.»

كانت قد صعقته بكلماتها، إذ انه لم يتوقع منها ان تحدثه عن أمر خاص بها، والآن وبما انها قد فعلت ذلك، فجل ما كان يفكر به كم انه سعيد بأن ينظر اليها ويكون برفقتها.

«أنا آسفة.» همست بارتباك، ثم حدقت في الصحن امامها، وتابعت: «ما كان عليّ ان اخبرك بذلك، لا أدري لِمَ فعلت.»

مد روس يده من فوق الطاولة، امسك يدها وقال: «يا كاثلين انظري إليّ.» نظرت اليه وقلبها يجيش بمشاعر حارة وحلوة حتى ان الدموع أحرقت عينيها.

وتابع: «تستطيعين قول أي شيء ترغبين به، مهما يكن، نحن الآن اصدقاء، نعم نحن الآن اصدقاء، أليس كذلك؟»

حتى اللحظة لم تكن كاثلين قد لاحظت كم كانت هذه الكلمة مميزة بالنسبة لها. «أجل، نحن اصدقاء، وإني سعيدة.»

كان الظلام قد خيم في الوقت الذي تركا فيه المطعم،

وفي طريق عودتهما إلى الجبل، قرر روس ان يقضي الليلة في منزله الخاص، فقد أدرك انه لم يعد بإمكانه الوثوق بعواطفه تجاه كاثلين، وببقائه لوحده معها.

عندما وصلا إلى منزل كاثلين، واخبرها بأنه عائد إلى منزله، حدقت فيه باندهاش، وأجابته: «آه، يا روس، هل انت متأكد من ذلك؟ غايتي ان تبقى الليلة معي ومع ستورمي.»

شعر روس بأنه يتمزق إرباً لخيبة الأمل التي بدت على وجهها، لكنه أصر على قراره: «أعلم انك كنت تنوين إبقائي هنا، لكن الآن وقد عرضت ستورمي على الطبيب، ولديك كل ما تحتاجين اليه، ستكونين بخير.»

لم تكن كاثلين من قبل ضعيفة أو متشبثة بفكرة، وبالتأكيد لم تكن ترغب الآن في ان يأخذ روس عنها فكرة مماثلة.

«طبعاً، سأكون بخير، لما لا. هناك آلاف الأمهات في الخارج، استطيع ان أنجح. وعلى أي حال فقد كان من اختياري الاحتفاظ بالطفلة، فهي مسؤولة مني وليس منك.»

كان يجب ان يكون روس مرتاحاً لتصرفها المستقل، لكنه لم يكن كذلك. شعر وكأنه وضيع، واكثر من ذلك انه مهمل ومنفصل عن عائلة آنية كان جزءاً منها خلال يوم كامل.

لكن الأمور كانت دائماً على هذه الحال بالنسبة لروس، فوالدته كانت تدفع به إلى والده ليتولى أمره، وعندما تزوج من امرأة أخرى وأنجبت أولاداً أرسله والده إلى والدته، ومن ثم تزوجت والدته ثانية، ولم يعد جزءاً من حياتها الجديدة، أو في عداد أولادها الجدد. ويوم تخرج من

الثانوية العامة، ترك المنزل، وهو يقسم انه لن يبقى في منزل ليس بحاجة اليه، أو غير مقبول فيه.

«نعم، حسناً ان احتجت إلي تعرفين أين اكون، إلى اللقاء يا كاثلين.»

اجابته: «إلى اللقاء.» ثم اخذت تراقبه بتعابير حائرة على وجهها، وهو يخرج بسرعة من الباب، فقد انقلب فجأة، في الدقائق القليلة الأخيرة من صديق دافىء يهتم بالآخر إلى غريب بعيد. ما عساها تكون قد قالت أو فعلت؟ أو هل كان يحاول القول لها بسهولة بأنه قد قام بما يتوجب عليه... قد انقذ حياة الطفلة، وتورطه قد انتهى؟

لقد بعثت فيها الفكرة احساساً بالوحدة، وبالرغم من ان لديها الطفلة لتهتم بها، فلم تستطع إزاحة الشعور الحزين عنها، أو ان تكف عن التفكير بروس دوغلاس.

• • •

سألت إيلا غالاغر ابنتها: «كاثلين، هل أنت واثقة مما تقولين؟ فرعاية طفل مسؤولية بالنسبة لزوجين، وعليهما اخذها بعين الاعتبار، وانت ليس إلى جانبك زوج يساعدك في تنشئة الطفلة. صدقيني يا حبيبتي، هذا أمر عليك التفكير به ملياً.»

نقلت كاثلين سماعة الهاتف إلى اذنها الأخرى، ثم قالت: «لقد فكرت في المسألة يا أمي، فقد فكرت في الأمر منذ ان حملتها لأول مرة بين ذراعي، آه، يا أمي كم هي غالية وجميلة.»

تنهدت إيلا وقالت: «نعم، أعلم يا كاثلين، جميع الأطفال

أعزاء وعلى قدر من الجمال، ثم يكبرون فيصبحون مراهقين مبكري النضج. صدقيني ان تربية طفل حتى يصبح راشداً، أمر ليس بالسهل.»

عبست كاثلين وهي تمسح الزبدة على قطعة خبز، وقد ثبتت الهاتف بين كتفها وأذنها: «إذن أنت تحاولين أن تحبطي عزيمتي، وتعتقدين اني سأرتكب خطأً يا أمي. فأنت تعلمين كم كنت أرغب بطفل في الماضي.»

«أعلم يا كاثلين، انها رغبة والدك أيضاً، ونرغب في ان يكون لديك طفل بقدر رغبتك انت، اردنا فقط ان يكون لديك طفل وإلى جانبك زوج.»

«حسناً، وأنا أردت المسألة ان تكون على هذا الشكل أيضاً، لكن هذا الشيء لم يتحقق.» وتوقفت للحظة ثم اخذت نفساً عميقاً. «انظري، يا أمي، وسأخبرك أيضاً بأن أول شيء قمت به هذا الصباح هو ان اتصلت بباركر مونتغمري واخبرته عن تصميمي برعاية ستورمي.»

«وماذا قال؟»

«أولاً، يجب الاهتمام بالظروف المحيطة بوالدي الطفلة الحقيقيين، ان تمكنت السلطة من العثور عليهما، ومسألة كوني ارملة أيضاً لن تساعد في حل الأمور... لكنه قال أيضاً بأن فرصتي برعاية الطفلة واردة للبحث.»

صمتت إيلا لوقت طويل، مما دفع كاثلين إلى التساؤل ان كان قد اغمي عليها. «أمي! هل مازلت هنا؟»

«نعم، نعم، انا لاأزال هنا، كنت فقط أفكر.»

«بماذا تفكرين؟» سألتها بسرعة، كل ما تحتاجه كاثلين الآن، هو دعم عائلتها لها، وكانت ترجو لتحظى به.

«ان كان هذا ما تريدينه حقاً، فأنت تعرفين بأني أنا ووالدك سنعمل ما بوسعنا لمساعدتك.»

ترقرقت الدموع في عيني كاثلين، وقالت: «احبك يا أمي.»

«ان كنت تحبينني حقاً، تعالي الليلة، لتناول العشاء معنا، واجلبي الطفلة معك، فنحن متشوقون جداً لرؤيتها، واصطحبي أيضاً ذلك الشاب الذي وجدها. نود ان نتعرف إليه.»

«كيف عرفت انه شاب؟ فأنا لم اخبرك عنه.»

ضحكت إيلا، وأجابت: «عرفت، يجب ان يكون شاباً، لأن رجلاً كبيراً في السن، لا يستطيع حمل طفل والصعود به إلى الجبل وسط عاصفة جليدية. باستثناء والدك، على الأرجح.»

قالت ذلك بتباهٍ، ثم ضحكت ضحكة ساخرة.

لطالما اذهلتها استنتاجات والدتها، ضحكت كاثلين وأجابت: «أنت محقة، فهو شاب ووسيم، وسأحاول ان آتي به وبالطفلة قبل ان تبدأوا بالعشاء.»

قالت إيلا: «سنبقى بانتظارك.» وبعد وداع سريع، اقفلت الهاتف.

كانت الساعة الثالثة من بعد الظهر، ولم تكن كاثلين تعلم بعد ما ستفعل بخصوص دعوة روس إلى العشاء في بيت المزرعة. كانت متأكدة انه سيعود في ذلك اليوم ليطمئن عليها وعلى الطفلة، لكنه لم يظهر حتى الآن، وبما انه كان يوم سبت، فقد ادركت كاثلين انه قد لا يكون في المدرسة، وحيث انه جديد في المنطقة، فكانت تشك في أنه يقوم بزيارة أحد الأصدقاء.

حسناً، ان لم يظهر قريباً، ستذهب بسيارتها إلى منزله، قد لا يكون يريد رؤيتها، لكنها هي أرادت ان تراه. وبما ان كاثلين ليست من النوع الخجول، فلن تهتم ان قالت له ذلك، أو ان تدعوه لتناول العشاء معها ومع عائلتها.

كان روس واقفاً بالقرب من نافذة غرفته الأمامية، ثم رفع فنجان قهوته إلى شفتيه وهو شارد الذهن، يحدق في التلة المغطاة بالأشجار والتي تؤدي إلى منزل كاثلين. كان قد شغل نفسه طوال النهار، وهو يفرغ صناديقه من محتوياتها، إلى ان انتهى من آخر غرض لديه. وخلال فترة عمله لم ينفك ابداً عن التفكير بكاثلين والطفلة، فقد اشتاق اليهما، وكلما حاول اقناع نفسه بأنه لا حاجة به لهما، كلما زادت رغبته في رؤيتهما.

بات روس يحاور نفسه قائلاً: «انك الآن في التاسعة والعشرين من عمرك، وقد مرت بك هذه السنوات ولم تختر لنفسك امرأة تهواها، ولمجرد ان كاثلين تبدو أمامك بنعومتها وجمالها، لا يعني هذا انها قد تكون مهمة في حياتك، لكنه كان يحتاجها، ومن دونها كان يحس بالوحدة. إذن، لِمَ كان يقاوم؟ لِمَ لم يذهب بسيارته لرؤيتها؟

لأن احساساً جنونياً كان يتملكه، ففي اللحظة التي سيراها فيها ثانية لن يستطيع لجم نفسه عن الوقوع في غرامها، ان لم يكن فعلاً قد وقع في حبها.

إرتدت كاثلين تنورة مزينة بمربعات باللونين البني والخمري الغامق، وبلوزة بيضاء وانتعلت جزمة جلدية، وما ان سمعت جرس الباب حتى رمت بفرشاه شعرها جانباً، وهرعت لتجيب.

في اللحظة التي فتحت فيها الباب ورأت روس واقفاً على العتبة وابتسامة عريضة قد ارتسمت على وجهه، خفق قلبها من الفرح.

«روس! كنت ابحث عنك طيلة اليوم، كما كنت على وشك ان اعتقد بأنك قد نسيتني ونسيت ستورمي.»

كان روس يفكر، بأنه كاد ان يفعل... أمسكت كاثلين بيده وقادته إلى داخل المنزل.

«كلا! لم انس، كنت اعمل... كنت افرغ اغراضي.» لم يرغب في الاعتراف انه الآن فقط قد عزم على المجيء ليراها، ثم فكر لعله كان مخطئاً في القرار الذي اتخذه، لكن تفكيره لم يكن على هذا النحو، والآن وهو موجود هنا، وقد شاهد الابتسامة على وجهها، شعر بارتياح داخلي، وغمرته سعادة لا توصف كما لم يشعر أبداً بمثلها في حياته.

«كيف حال الطفلة؟ هل ايقظتك كثيراً ليلة البارحة؟»

تقدمت كاثلين نحو الكنبة حيث كانت ستورمي راقدة. وأجابت: «انها بخير، كلا، استيقظت مرة واحدة ليل البارحة.»

لم تكن كاثلين ترغب في الاعتراف لروس بأنها قضت ليلة أمس مستيقظة بسببه وليس بسبب الطفلة، لقد مضى على وجودها في هذا البيت اكثر من سنة، لكنها لم تتذكر مرة ان المنزل كان هادئاً وفارغاً كما هو الآن، حتى ان وجود الطفلة لم يعوض عنها غياب روس، لكنها لم تقدر على البوح له بذلك، فقد يبدو عليها وكأنها مغرمة به، وهي ليست مغرمة به؟ أليس كذلك؟

جلس روس إلى جانب الطفلة، ولم يقو على منع نفسه من لمس شعرها وخدها الصغير الناعم، كانت كاثلين قد ألبستها فستاناً أبيض، وقد رسم على صدره قلوب واقواس حمراء صغيرة.

الآن وهي في لباسها هذا لا تبدو ذلك المخلوق الصغير الذي وجده في صندوق الكرتون.

تبسمت كاثلين لكل منهما، الآن، وقد اصبح روس بينهما، احست ان لا شيء ينقصها، قالت: «سآخذها لتتعرف عليها عائلتي، أي سنأخذها إلى هناك، فأنت مدعو أيضاً.»

سألها مندهشاً: «أنا؟ آه.. لا... لا... لا يمكن ان اكون مدعواً، فعائلتك لا تعرفني!»

ضحكت كاثلين للتعبير الذي بدا على وجهه على أثر الصدمة، وأجابت: «بالطبع، لا يعرفونك، لذا يريدون التعرف اليك، فقد اصبحت بطلاً، اتعرف هذا.»

هز روس رأسه بامتعاض وقال: «أنا لست بطلاً، ولا أي شيء قريب من ذلك.»

أجابت كاثلين: «حسناً، عندما تكبر ستورمي، ستشكرك على ذلك.»

عاد فنظر إلى الطفلة وتساءل، عندما تصبح هذه الفتاة الصغيرة شابة، هل سيعني لها شيئاً؟ وهل قد تصبح جزءاً من حياته؟ لقد دفعت به هذه الاسئلة إلى ملاحظة ماهية الخسارة التي سيشعر بها إن لم يكن في حياته اطفال. واكثر من ذلك فالخسارة ألا اكون جزءاً من حياة هذه الطفلة.

«هل أنت متأكدة من ان عائلتك حقاً دعتني؟ وأنت لا تفرضينني عليهم؟»

ضحكت كاثلين: «لا يمكنك ان تفرض احداً على عائلة غالاغر، صدقني.»

«حسناً لست في لباس لائق لعشاء عائلي.»

حدقت بثيابه وقالت: «انك لا تبدو عارياً تحت هذه السترة! أليس كذلك؟» سألته بسخرية.

وبابتسامة ساخرة على شفتيه، ازاح جانباً من سترته ليريها قميصاً أسود كان يرتديه.

«إذن سآتي بعربة ستورمي، وبحقيبة الحفاضات وسننطلق إلى هناك.»

لم يسبق ان دعي روس من قِبَل امرأة للقاء والديها أو عائلتها، ولم يكن متأكداً تماماً من انه يرغب في الذهاب، وبما ان كاثلين كانت برفقته وقد اصبحوا في منتصف الطريق المؤدية إلى المزرعة، فلن يستطيع الالتفات إلى الوراء، أو الهروب.

«أخي سام هو اكثر هدوءاً ورصانة، ونك هو المازح المزعج الذي تعود على مضايقتي بمزاحه منذ اصبح يافعاً وعالماً بذلك.» اخبرته كاثلين بذلك والسيارة تنحرف بهما إلى مفرق يؤدي إلى بيت المزرعة.

«وشقيقك الجاد سام كان دائماً يأتي اليك ليواجهك.»

ضحكت: «كيف عرفت؟»

استطاع روس ان يسمع في صوتها نبرة حنان وهي تتحدث عن شقيقيها، واخذ يتساءل كيف يبدو ذلك المكان الذي تكن له كاثلين حباً في قلبها. كانت امرأة متميزة، والرجل الذي ستحبه سيكون مميزاً، وليس شخصاً على غراره.

واجاب: «انها مجرد أحجية.»

حدقت كاثلين به، واستقر نظرها بتقدير على شكله الجانبي الجريء وقالت: «آه، على الأرجح ان لديك أخاً أو اختاً مثلي. أليس كذلك؟»

علت محياه عبسة خفيفة. «ليس لدي أخوة أو اخوات.»

نظرت اليه وكان الارتباك واضحاً عليها. «لكنك قلت ان لديك دزينتين من الأشقاء والشقيقات.»

طأطأ رأسه، وبدا على محياه تعبير رزين، وأجاب: «نعم، لدي شقيقان، وثلاث شقيقات، لكني لا اعتبرهم اخوة واخوات حقيقيين، كانوا صغاراً حين ترعرعت بينهم، وقد بقيت مع بعضهم فترة اطول من تلك التي امضيتها مع بعضهم الآخر.»

وفكرت كاثلين، انه لأمر محزن جداً، لا يمكنها ان تتصور حياتها من دون نك أو سام، أو الحب والرفقة التي يتشاطرونها.

أحست بجرح شعورها إذ علمت ان روس لم يتعرف أبداً على مثل هذا الحب والحميمة.

عندما دخلت كاثلين إلى المنزل ومعها روس والطفلة، وجدت العائلة تنتظر في غرفة المطالعة، حتى ان كلبي سام الضخمين، جايك وليو، كانا ممددين امام الموقد.

«ها هم قد وصلوا.» اندفع والدها يقول بصوت مدو، لدى رؤيته ابنته تدخل من عتبة الباب.

أثار اعلان والدها عن وصولهم اهتياجاً، ووجد روس نفسه مع كاثلين والطفلة مطوقين، وتطلع إلى هذا الجمع

بانبهار وقد انطبعت في ذاكرته صورة لثلاثة اشخاص طوال متيني البنية، وثلاث نساء جذابات جداً.

قالت كاثلين حيث كان الجميع يتكلمون معاً: «اعرفكم على روس دوغلاس.» نظرت إلى روس الذي كان لا يزال على مقربة منها، وقالت باعتزاز: «روس، اقدم لك أمي وأبي.»

طأطأ برأسه، محيياً الزوجين الكبيرين في السن، اللذين لايزالان يحتفظان بمسحة من الجمال وقال: «سعيد بلقياك يا سيد غالاغر.»

أجابه الوالد: «ونحن مسرورون بلقائك، نحن هنا عادة لا نتقيد بالشكليات.»

تابعت كاثلين تعرف باقي افراد العائلة على روس: «وهذا الرجل المتحجر الوجه الذي يلبس قميص فانيلا هو أخي سام، والجميلة المتعلقة به هي زوجته الجديدة أوليفيا.»

«مرحباً، سام واوليفيا.» حيا كلا منهما، ثم أومأت كاثلين بيدها إلى شابين، وقالت: «وهذا الجميل الشكل يكون أخي نك، العسكري، وطبعاً، تلك هي خطيبته الحلوة اليسون، وبالقرب من جايك وليو هناك بن ابن اليسون.»

أحاط روس بنظره الجمع كله، وقال: «اني سعيد بلقاء عائلة كاثلين، وآمل ألا اكون دخيلاً عليكم.»

اجابه الوالد: «هراء، يا بني! نحن نحب دائماً ان نرى وجهاً جديداً هنا.»

قال نك: «حسناً، فلنرى اذن الطفلة، فأنت قد خبأتها تحت كل هذه البطانيات، هل تحاولين خنقها يا اختي؟»

نظرت كاثلين إلى اخيها، وأجابت: «ليس كثيراً،

فالطقس بارد في الخارج، ام انك لا تدرك ذلك لأنك واقع في الحب؟»

بضحكة خبيثة منه، التفت نك إلى اليسون. «هل كنت تعلمين ان الطقس بارد في الخارج؟» سألها ثم حول نظره إلى شقيقته، وكان قد بدا على وجهه تعبير ساذج مبالغ فيه، وتابع: «لم نعلم يا أختي.»

قالت إيلا: «اعطني تلك الطفلة، لن أبقى واقفة انتظر، في حين انتما تتشاجران.» واخذت ستورمي من كاثلين وحضنتها، تبعها الجميع وفيما كانت إيلا تنتزع البطانيات عن الطفلة، تجمعوا حولها ليلقوا نظرة عليها.

«انظر اليها يا سام.» قالت اوليفيا بصوت خافت: «أليست رائعة؟»

وقالت اليسون متعجبة: «انظروا إلى ذلك الشعر الأسود.»

وهمس نك بمضايقة كاثلين فقال: «يمكننا التخلص من هذا الشعر في الحال.» فما كان من كاثلين إلا ان همهمت.

قامت كاثلين توبخه: «انها ليست واحدة من جنودك يا نك!» قالت ذلك بصوت مفعم بالعاطفة والحنان.

اضاف سام بصوت غاضب: «لا اصدق ان احداً قد تركها في العاصفة.»

وافق الوالد بالقول: «ولا انا يمكنني تصديق ذلك، واي يكن الفاعل، فانه يستحق ان يعلق من قدميه ويشنق في الشمس الحارة حتى يجف.»

إيلا التي لم تتفوه بكلمة حتى الآن، التفتت إلى زوجها، وعيناها تلمعان بالدموع، وقالت: «انها شبه كاثلين عندما ولدت.»

ربت على كتف زوجته، وأجاب: «عزيزتي تعرفين ان ذلك غير ممكن.»

«لا تجادلني لقد عانيت من الألم والعذاب خلال الاثني عشرة ساعة التي سبقت ولادة كاثلين، وكان علي ان اعرف كيف كانت تبدو عندما أخيراً ابصرت النور. وكانت تماماً مثل هذه كتلة من الشعر الأسود، وهاتان العينان، ستنقلبان خضراوين قبل ان تبلغ السنة، اني متأكدة من ذلك.»

ضحك الوالد من كلام زوجته، وقال: «ويمكنني ان أرى انك قد اعتبرتها أيضاً كفرد من عائلة غالاغر.»

«حسناً، ستكون من آل غالاغر، ان استطاعت كاثلين ربح دعوى حضانتها.»

استقام روس في وقفته من الصدمة، هل كانت كاثلين تحاول الحصول على حضانة ستورمي؟

الفصل التاسع

نظر روس إلى كاثلين فرأى وجهها يتوهج فرحاً وهي ترقب عائلتها التي أبدت اهتماماً غير عادي بـ ستورمي.

«كاثلين؟»

عندما استدارت لتجيب، امسكها بذراعها وقادها إلى مكان في الغرفة بعيد عن الآخرين.

«ماذا بشأن حضانتك لستورمي؟ انت لم تخبريني شيئاً يتعلق بهذا الأمر؟» وفجأة، احست كاثلين بالذنب تجاهه، لقد ارادت ان تخبره بما صممت عليه. في الواقع كانت تريد اخباره قبل أي شخص آخر، لكنها كانت شبه خائفة من ان يمانع فيما قررته. قالت له: «اعرف، كنت أريد ان اخبرك لاحقاً.»

لم شعر فجأة وكأنه غير مرغوب فيه؟ من الواضح ان عائلتها قد علمت بقرار حضانتها للطفلة، لكنه هو لم يعلم، وراح يوبخ نفسه، انها تحب عائلتها، فلا تتوقع ان تعاملك بالمثل، أليس كذلك. وسألها: «إذن لقد عزمت على قرارك؟»

خامرها في تلك اللحظة شعور بأن لمسة منه قد تشعرها بالاطمئنان فمدت يدها إلى يده، وشبكت اصابعها باصابعه، ثم قالت: «أدرك اني ارملة وقد أواجه متاعب للحصول عليها، لكني سأحاول يا روس، فقد احببتها لا يمكنني التخلي عنها.»

www.elromancia.com

كان روس قد وقع في غرام كاثلين، لم يعرف متى حصل ذلك وكيف، لكنه قد حصل، والآن وهو ينظر اليها محاطاً بهذه العائلة الكبيرة المحبة، كان يتساءل ان كان كفؤاً لينضم إلى هذه العائلة.

كان العشاء عبارة عن وجبة كبيرة من الطعام المنزلي الصنع البسيط. وكانت الأحاديث صاخبة، اذ قام الجميع بسرد جميع انواع القصص على روس، التي تدرجت من احداث حصلت معهم في المزرعة إلى اخبار مازحة عن ايام الطفولة.

اما بالنسبة لأليسون فقد قصت عليه كيف انها قبلت خاتم الخطوبة من نك، فقط لأنها خافت أن يرمي بها في زريبة الحيوانات ان رفضت.

وفوق ذلك كان روس مستمتعاً اكثر بوجوده بين عائلة كاثلين، فقد كانوا مجموعة منفتحة، يقولون ما يفكرون به، وإذا ما أرادوا الاستطلاع عن أي شيء حوله، كانوا يوجهون اليه اسئلة مباشرة دون اللجوء إلى التلميح باسئلة خبيثة.

بعد العشاء اخذ الرجال قهوتهم إلى غرفة الجلوس، في حين ألحت اوليفيا واليسون على كاثلين للصعود معهما إلى الطابق العلوي، كي يلقين نظرة على فستان في مجلة للعرائس.

احتجت كاثلين: «ماذا عن ستورمي؟» لكن الامرأتين استمرتا في حثها على الصعود.

طمأنتها اوليفيا بان إيلا هناك، وهي تستبدل لها الحفاض، ستكون بخير.

عندما دخلن غرفة نوم كاثلين القديمة، واغلقن الباب، ألقت كاثلين نظرة عابرة في الغرفة، ثم سألت: «حسناً، اين المجلة؟ هل الفستان قصير أم طويل؟»

لم تبدو اليسون مرتاحة، في حين أن اوليفيا قهقهت. «لا توجد مجلة. أعني أن أليسون ما زالت تبحث عن فستان. أولاً أردنا أن نصعد بك إلى هنا لأسباب أخرى.»

نظرت كاثلين إلى السيدتين. «أي أسباب أخرى؟»

ابتسمت أليسون: «لقد سمعنا كل شيء حول الطفلة.»

«حسناً...»

وأنهت أوليفيا الحديث عنها: «ونريد أن نعرف عن روس.»

تقوس حاجبا كاثلين إلى أعلى، وقالت: «لقد سبق ان طرحتم عليه اسئلة حول كل شيء، واني مندهشة كيف ان سام لم يسأله بعد عن رقم ضمانه الاجتماعي!»

انفجرت اوليفيا واليسون بالضحك، لكن كاثلين كانت تحدق بهما بذهول. «ما المضحك في ذلك؟ اتصور ان روس قد دخل في تجربة تحت الميكروسكوب بدل ان يدخل إلى منزل المزرعة.»

اضافت أليسون: «آه، اني واثقة من انه لا يشعر كذلك مطلقاً، بدا وكأنه مستمتع، خاصة عندما كان ينظر اليك يا كاثلين.»

استطاعت كاثلين ان تلاحظ على الفور، ما كان يجول في خاطر المرأتين، فرفعت يديها عالياً بسرعة لتضع حداً لحديثهما: «انتما تتخيلان ذلك، وعلاوة على ذلك لم يمض على معرفتي به أكثر من ثلاثة ايام!»

التفتت اليسون إلى اوليفيا، وقالت: «هل تتذكرين كنت اقول الشيء نفسه عن نك!»

أومأت اوليفيا برأسها إيجاباً: «اتذكرها وكأنها اليوم، فقد حدث ذلك يوم ذكرى زواجي، واليوم انتما سعيدان بخطوبتكما وستتزوجان قريباً.»

«حسناً، حسناً، إذن كنت ازعجكما في حديثي عن حياتكما الغرامية مع شقيقاي، لكن نك مختلف، روس... حسناً انه مميز وانا احبه كثيراً لكن ليس كحبكما لسام ونك، فروس لا يفكر بي بتلك الطريقة، لأنه اخبرني اكثر من مرة انه يرغب في أن يبقى بعيداً عن الحب والزواج.»

«هم... وهذا ما قاله لي نك تماماً.» قالت أليسون ذلك وهي تتبادل مع اوليفيا ابتسامة من يفهم بكنه الأمور.

سألتها اوليفيا: «وأنت هل تنظرين اليه نظرة مماثلة؟»

زمت كاثلين شفتيها، وأجابت: «اوليفيا، أنت تعلمين ما قاسيته مع غريغ! زواجنا كان مريعا، لقد خدعني وانا... حسناً، وأنا اليوم استجمع قواي من جديد، لِمَ على التورط مع رجل آخر؟»

«ان بعض النساء قد لا يحتملن ذلك.» قالت اليسون ذلك بدماثة، ثم حدقت ثانية بأوليفيا.

«حسناً، استخلص مما اخبرتني به، ان روس لا يشبه غريغ بشيء.» تمشت اوليفيا في الغرفة ثم جلست على حافة السرير، وعادت فالتفتت إلى كاثلين. «في الواقع اظن ان العائلة كلها قد أحبته.»

أجابت كاثلين: «إني سعيدة، وكما قلت أنا أيضاً أحبه.»

أضافت أليسون: «تعلمين كنت قد التقطت باقة زهر العرس الخاصة بأوليفيا، اظن ان ذلك يعني شيئاً ما.»

ضحكت كاثلين غير مصدقة ما يقال: «ما الذي يجعلك تعتقدين ذلك؟ حسناً، رجل اسمر طويل قد دخل إلى حياتك، اضافة إلى طفلة قد لا يسعني بأن افكر بشيء أفضل.»

قالت اوليفيا بدعابة: «يذكرني روس بجيمس دين المعروف بتلك الجاذبية المميزة، واظن انه عندما يبتسم وتظهر تلك الغمازة على خده...»

«حسناً، قد يقال عنه أي شيء، إلا انه بشع، يا كاثلين.»

«عار عليك! سأخبر سام بأن لديك عينين تجولان حولك.»

ضحكت اوليفيا ضحكة امرأة واثقة من زوجها وزواجها، وقالت: «سام يعرف اني لا احب سواه. وسيبقى الأمر دائماً على هذا الحال.»

نظرت كاثلين إلى زوجة أخيها، واحست بما يشبه الغيرة، فلهاتين الامرأتين رجلان يحبانهما، وأكثر من ذلك سترزق كل منهما قريباً بطفل. وقد لا تحظى كاثلين بأي من هذين الشيئين.

«كاثلين، لم لا تعودين غداً أنت وروس، لتناول عشاء يوم الأحد معنا.» نطقت إيلا بذلك في وقت متأخر تلك الليلة، فيما كان روس وكاثلين يتحضران للمغادرة.

ثم اضاف نك: «فكرة حسنة، عودوا يا روس، فقط خطر

على بال سام ان نقطع حطب الموقد غداً، سيوكل اليك عملاً ما.»

• • •

عندما اوقف روس شاحنته امام منزلها سألته كاثلين: «الا تريد الذهاب إلى المزرعة غداً.»

«لم تقولين ذلك؟»

حدقت كاثلين به، لقد كان هادئاً جداً ومنطوياً على ذاته، طوال الوقت في طريق العودة إلى المنزل، وتصورت كاثلين انه كان نادماً على قضاء أمسيته معها ومع عائلتها، أجابته: «لا أدري، انه مجرد شعور.»

تنفس تنفساً منقبضاً، وطوال الوقت، واثناء عودته إلى البيت، كان يشعر بها إلى جانبه، كان يرغب اكثر من أي وقت مضى في ان يلمسها، ويقبلها من جديد، وكان يتساءل كيف ستكون ردة فعلها، لو انه فعل ذلك.

«لقد احبت عائلتك ستورمي حباً جنونياً.»

ابتسمت كاثلين للطفلة التي كانت مقيدة في مقعدها وقالت: «نعم، لقد احبوها.» ثم حدقت به: «واحبوك أنت أيضاً.»

لم يصدق روس ما قالته: «آه... صحيح؟ كيف عرفت؟»

«عرفت، هل تعلم ما قالته اوليفيا عنك؟»

نظر اليها نظرة جانبية حذرة: «لا، ماذا؟»

قالت: «انك قد ذكرتها بجيمس دين الأسود الشعر.»

ارجع روس رأسه إلى خلف، وضحك قائلاً: «اظن ان ذلك كان إطراءً منها.»

«كانت تعني ما تقول.» قالت كاثلين ذلك وهي تمد يدها لتفك رباط عربة الطفلة.

«دعيني احمل ستورمي إلى المنزل، لا اريد ان يتأذى أي منكما من الجليد.»

سلمته كاثلين الطفلة، وبسرعة جمعت حقيبتها وحقيبة الحفاضات من أرض الشاحنة، وعندما دخلوا إلى البيت أوعزت اليه كاثلين بحمل الطفلة إلى غرفة نومها.

بما ان السرير من الحجم الكبير، دعها تنام معي.» قالت له ذلك وهما يجتازان القاعة الكبيرة: «هكذا استطيع ان اسمع بكاءها.»

كان هناك بصيص نور يتسرب من القاعة الكبرى إلى الغرفة، مضيئاً طريق روس، وهو متجه إلى السرير.

مشت كاثلين خلفه، ثم اضاءت مصباح طاولة صغير، فيما كان روس يضع الطفلة على السرير.

كانت ستورمي ترتدي بيجاما تغطي اسفل قدميها، فغطتها كاثلين بحذر ببطانيات، ثم وضعت على جانبيها وسادتين، وقالت: «أعرف انها لن تتمكن من التقلب قبل فترة طويلة، لكنني اشعر بأمان لوجود هاتين الوسادتين على جانبيها.»

بعد ان فرغت من مهمتها واستقامت في وقفتها، التفتت اليه وابتسمت قائلة: «ربما علي ان افكر في شراء سرير خاص للأطفال.»

«كاثلين...»

لاحظت نوعاً من الارتياب يسود وجهه، وادركت ما سيقوله: «أعلم، يا روس ستقول لي ان عليّ ألا اتفاءل كثيراً.»

كانت على بعد خطوة واحدة منه، اقترب روس منها ووضع يده على كتفها: «سيؤذيك ان تتخلي عنها، وانا لا اريد ان يحصل لك ذلك.»

كانت عينا كاثلين تتفحصان وجهه، وهي على هذا الحال، بدأ قلبها يخفق بسرعة في صدرها، اما تلك النظرة التي بانت في عينيه الرماديتين لم تكن نظرة اهتمام وقلق فحسب، لكنها كانت نظرة تنم عن عاطفة.

«آمل ان تدعو لي بالتوفيق.» قالت ذلك دون ان تعي ان صوتها قد خفت إلى ما دون الهمس.

في تلك اللحظة، وهو يحدق بها، أدرك روس انه مستعد لأن يفعل أي شيء ليسعد هذه المرأة: «سأفعل.»

ارتاحت يده الدافئة على كتف كاثلين، وكانت الرائحة الذكية المنبعثة من العطر الذي يضعه تنعشها.

تمتم روس: «بالنسبة للعودة إلى المزرعة معك غداً قد احب ذلك، لو اردتني ان اذهب.»

لقد اسعدها بكلماته اكثر بكثير مما أرادت الاعتراف به، وقبل ان تلاحظ ما كانت تفعله، وقفت على رؤوس اصابعها وقبلت وجنته، وهي تقول: «أريدك حقاً ان تذهب.»

في اللحظة التي لمست شفتاها وجهه، كاد روس ان يفقد صوابه، وتشابكت يداه بشعرها الكثيف، ثم هوى بحدة على خدها.

«آه، يا كاثلين انت اجمل امرأة رأيتها في حياتي.» همس بحرارة ثم تنقلت اصابعه إلى وجهها، حيث راحت تلامس عينيها، وأنفها وخديها، وأخيراً شفتيها. «هل تعلمين كم

أنا أرغب في ضمك بذراعي!» كانت كلماته وانامله التي تتحرك فوق وجهها تحاكي مشاعر كاثلين، ولم تقوَ على مقاومته. كما كانت على وشك ان تلفظ اسمه، إلا انه ضمها بسرعة بين ذراعيه وغطى فمها بيده.

لم تنس كاثلين بعد تلك القبلة التي تبادلاها عشية العيد، احست بعاطفة مماثلة لما كانت قد أحست به تلك الليلة.

لم يشعر روس في حياته كلها، انه فقد صوابه، كما يشعر الآن، فقد نسي مكان وجوده، وكانت الدقائق الطوال تمر متباطئة، فقد نسي كل شيء بحيث ان احاسيسه قد ذابت بهوى المرأة التي بين ذراعيه، وكانت تفوح منها رائحة كرائحة الورود الحمراء تحت حرارة الشمس الدافئة.

«كاثلين!»

أحست بدوار في رأسها، ما ان لفظ اسمها وهو يزرع القبل على خدها.

«آه... يا روس هذا جنون لا اظن...»

جعلها تئن في داخلها، لقد أرادت ما يدور بينهما ان يكون تعبيراً عن حب، وقد يكون هذا الحب من طرفها وحسب، وقد أيقنت ذلك الآن. لقد أحبت حقاً ذلك الرجل الأسود الشعر، بابتسامته الساحرة، وعينيه الرماديتين الهادئتين، وهي تريده ان يبادلها الحب، ليس فقط بجسده، ولكن بعاطفته.

همست بوهن: «يا روس، لا اقدر، أنا... لقد استعجلنا الأمور.»

وتشابكت اصابع كاثلين بخصلات شعره السوداء المتموجة.

«هل تعرفين كم انا بحاجة اليك الآن؟»

نعم، كانت تعرف، لأنها هي أيضاً، كانت بحاجة إليه إلى حد كبير.

همست: «أرجوك، لا تغضب مني.»

قال بصوت معذب: «لا تعتذري يا كاثلين.»

أدار ظهره لها، وقال: «اظن بعد ما حصل... حسناً ان اردت إلغاء موعد الغد، سأتفهم الأمر.»

جحظته بعينين واسعتين. «ألغي الموعد؟ لا اريد ان الغي أي موعد!» مدت يديها إلى يديه، وشبكت اصابعها بأصابعه وتابعت: «يا روس، اريد ان نبقى اصدقاء، اعني نستطيع نسيان ما حصل، ونبقى معاً، ألا يمكننا ذلك؟»

«لا أدري، يا كاثلين... أنا...»

وبعد ان سمعته وهو يخاطبها بصوت متردد، قالت له: «انظر يا روس، سبق وقلت لي انك لا تود ان تتورط في زواج، وانا بالتأكيد يمكنني تفهم الوضع، لذا اظن... حسناً، اظن اني تقليدية التفكير، لأنني ادرك ان ليس باستطاعتي اظهار عواطفي مع شخص دون ان ارتبط به، ولن اطلب اليك ذلك، على أي حال كنت قد أقنعت نفسي للمرة الألف، بأني لن اقدم على الزواج ثانية.»

كان يسمع باحترام كل ما تخبره به، لكن حقيقة، لم يعد يشعر كما كان يشعر سابقاً، كان يود اخبار كاثلين بأنه يرغب في الارتباط بها، وان وافقت فقلبه سيكون ملكها.

لكنها كانت قد صدته عدة مرات فيما مضى، حتى اصبح يخاف ان يبوح لها بمشاعره الحقيقية، وقد تفوهت الآن

بأشياء لم تكن تعلم مدى شعوره نحوها، فهي لا تريد ان ترتبط به أو بأي رجل آخر، وقال متذمراً: «عليّ الذهاب الآن، اراك غداً.»

كانت كاثلين تراقبه وهو يغادر الغرفة، مجروح الخاطر، دون ان تجد تفسيراً لذلك، وبعد لحظات سمعت صوت إقفال الباب، فعرفت انه غادر منزلها، ربما إلى الأبد.

همست بحدة: لم قد حدث ما حدث؟ لم لم يضعا مسافة بينهما، سألت نفسها والدموع تترقرق في عينيها، الآن تغير كل شيء، كل شيء! وكانت جد مرتعبة مما قد يتسبب به هذا التغير لقلبها المجروح.

صباح اليوم التالي وبينما كانت كاثلين تستعد للذهاب إلى المزرعة للمشاركة في عشاء الأحد، اخذت تتساءل كيف ستقدر على مواجهة روس، وتتصرف بشكل طبيعي.

كل شيء بدا غير طبيعي إلى حد كبير، في الواقع كانت تشعر انها محطمة، وكان ذلك بادياً عليها، اذ انها لم تغف إلا لساعات قليلة، ليس لأن ستورمي ايقظتها مرتين في الليل، كلا، فالأمر بدا اكثر تعقيداً من ذلك، لم يكن بمقدورها ان تمحي صورة روس من مخيلتها، ففي كل مرة كانت تحاول ان تغمض عينيها، كانت تظهر صورته امامها، لتزعجها بشتى الأفكار.

لم تدرِ كيف سمحت لنفسها بأن تقع في حبه، فمنذ زواجها المأساوي من غريغ، كانت تظن انها لن تقدر على الحب من جديد، لكن عشية العيد دخل روس إلى منزلها، وإلى قلبها معاً.

احياناً، لا نستطيع ان نقاوم انفسنا، تذكرت كاثلين كلمات اليسون حول الوقوع في الغرام.

والآن، باتت تدرك انها ان احببت شخصاً ليس بأمر تستطيع تحقيقه أو منعه، سواء كان صالحاً أو سيئاً، فقد يحصل وحسب.

لاحقاً، وبعد دقائق معدودة وصل روس فشعرت بخفقان في قلبها، رغماً عنها. لقد عاد.

«صباح الخير.» قالت وهي تغلق الباب وراءه.

«صباح الخير.» قال وعيناه الرماديتان تتأملان وجهها، فقد بدت متعبة هذا الصباح، وتساءل ما إذا كانت الطفلة قد ايقظتها، فسألها: «كيف سارت الأمور مع الطفلة ليلة البارحة؟»

وبابتسامة خاطفة، أومأت اليه كي يجلس، ثم أجابته: «لقد سارت الأمور على نحو جيد.» وكان ما قالته صحيحاً، لكن الأمور ساءت لتغيبه عنها، فقد افتقدته، وكل دقيقة امضتها يقظة من دونه، كانت تحس باشتياق إليه، كان ذلك جنوناً، كانت تعلم ان بقاءه بقربها قد يتسبب لها بألم مريع، لكن الأمر قد يبدو مريعاً عندما يغادر.

سار روس نحو الموقد، ثم قال: «ألم تستيقظ؟»

«مرتين فقط.»

وخطر ببال روس، كان حرياً به ان يكون هنا كي يساعدها بالاهتمام بالطفلة، ليس بمقدور امرأة الاهتمام بطفلة دون مساعدة من رجل.

على الرغم من ان ستورمي لم تكن ابنة أي منهما، فقد احس وكأن كاثلين والدتها وهو والدها، ويتوجب على

الأهل العيش معاً تحت سقف واحد. وعليهما ان يتشاركا في طاولة الطعام ونفس البيت، كان روس يفهم ذلك اكثر من سواه.

وقال معترفاً: «استيقظت ليلة البارحة ظناً مني اني سمعت صراخها. ولم استطع ان اغفوا فيما بعد.»

كان هناك ما يشبه الجرح المؤلم في صدر كاثلين، كانت تدرك انه قد تعلق بالطفلة، ويصعب عليه مفارقتها، فهو ليس قادراً على ان يحملها أو ان يرى بنفسه ان كانت بخير، وإذ مرت هذه الفكرة في رأس كاثلين، تهيأ لها، انها وروس كانا تقريباً كزوجين منفصلين، والصلة بينهما هي هذه الطفلة. لم يكن أمراً عجيباً، ان روس لم يكن يرغب بعائلة، اطرقت مفكرة، فقد كان يفهم بالدرجة الأولى، أي نوع من الألم قد تتسبب به الزيجات المحطمة. وقالت بصوت أجش: «ما كان عليك ان تقلق، أنت تعلم اني هنا، لأهتم بها.»

كان ينظر اليها وعيناه تطوقان شعرها الأسود الطويل، وشفتيها الحمراوين، كانت صارخة الجمال، ورأى روس ان من الأفضل لهما ان يمضيا وقتهما مع عائلة كاثلين.

اشاح روس نظره عنها، وهو يأخذ نفساً عميقاً ويقول: «نعم كنت اعلم انك موجودة هنا لتعتني بها، لكنني كنت قلقاً مثلك.»

اجتازت كاثلين الغرفة وتقدمت منه ثم وضعت يدها على ذراعه، تطمئنه: «لا أريدك يا روس ان تقلق بشأن ستورمي، يمكنك ان تأتي للاطمئنان عنها في أي وقت، حتى في منتصف الليل.»

نقل نظره من ذراعه الذي كانت كاثلين ممسكة به إلى وجهها، وأجاب: «لا اظنها فكرة حسنة يا كاثلين.»

وإذ تأثرت بكلماته الجارحة، أبعدت يدها بسرعة، ووضعتها خلف ظهرها، ظناً منها ان خبأتها فسوف تمنع نفسها عن لمسه.

ثم تمتمت: «ربما أنت على حق.» لم تكن تعي كم بدت حزينة، لم تدر لما شعرت انها مجروحة الخاطر ومنبوذة، ماذا عليها ان تفعل؟ فقد شعرت انها تتمزق من الداخل.

مرت لحظات قليلة وعصيبة، وروس لم يتفوه بكلمة فأطلقت كاثلين نفساً طويلاً وقالت: «إذن ان كنت جاهزاً يمكننا الانطلاق إلى المزرعة، عادة والدتي تقوم بشواء الدجاج يوم الأحد، وعلينا ألا نتأخر.»

بعد الغداء أدار والدها التلفزيون على لعبة فوتبول، واخذت النسوة الطفلة إلى الطابق العلوي، ودعا نك وسام روس لمساعدتهما في تقطيع الخشب.

«نحن عادة لا نحث ضيوفنا على العمل.» بذلك خاطبه نك، فيما كان الرجال الثلاثة يجتازون المرعى الشرقي في شاحنة سام، لكنك اليوم قد رقيت من ضيف إلى صديق للعائلة. وذلك يعني ان عليك ان تعمل.»

قال سام محذراً روس: «راقب نك جيداً، وإلا أمضى الوقت جالساً على طرف السيارة، ونحن نقوم بالعمل بأكمله.»

قال روس مستمتعاً برفقة شقيقي كاثلين: «قد يتوجب علي تحذيركما بأني لم اقم سابقاً بقطع الحطب، لأننا

لسنا بحاجة إلى الكثير من الحرارة في المكان الذي أتيت منه.»

ضحك نك وربت بقوة على كتفه: «يا بني، لقد أتيت إلى المكان المناسب كي تتعلم كيف تستعمل المنشار، يعتقد سام ان الرجل لا يعتبر حياً، إلا متى أمسك منشاراً بين يديه.»

قال سام بذبول: «انه شيء لا يؤذي الذي تحمله واكثر نفعاً أيضاً.»

«حقاً؟ حسناً، من الذي ذهب إلى المستشفى في الشتاء الماضي، لتغرس في رجله ١٢ قطبة؟»

«لم أكن أنا.» أجاب نك وهو يشارك روس غمزة.

بعد مضي ساعة من الوقت كان الرجال الثلاثة ينضحون عرقاً على الرغم من حرارة الطقس الباردة، وقد ملأوا الشاحنة حتى نصفها بالخشب المقطع، ثم قرروا بعدها ان يأخذوا استراحة قصيرة، كان سام قد جلب معه إبريقاً من القهوة، فناول نك وروس فنجانين من القهوة، وكانا يتشاطران مقعداً على طرف السيارة.

وقال: «هل تعلم يا روس، أنا ونك سعيدان ان نراك مع كاثلين، فقد مرت بأوقات حرجة في السنة الماضية.»

اخذ روس يحدق في السائل البني في فنجانه، وهو يقول: «اخبرتني ان زوجها كان قد قتل، اظن كان صعباً عليها ان تتغلب على حزنها.»

هز نك رأسه: «صعب؟ كنت قد بدأت افكر بأنها ستحزن إلى الأبد.»

قطب سام حاجبيه، وأجاب: «لا اعتقد انها قد حزنت، اظن ان غريغ قد جعلها كئيبة.»

اوما نك برأسه، موافقاً: «أنت محق فيما تقول... لقد اتعس حياتها، هل تعلم عندما وقع نظري على هذا الرجل لأول مرة، علمت اني لن أحبه، كان أنانياً.» ثم حدق في روس وتابع: «حسناً، اصبح لديك فكرة الآن؟ أليس كذلك.»

طأطأ روس رأسه، اصبحت الفكرة واضحة بالنسبة له، وشعر بكآبة حين علم ان كاثلين قد تأذت من قبل رجل، أو أي أمر آخر، مهما كان السبب.

أجاب سام: «على أي حال، نحن سعيدان انها اعتادت عليك، لم يتبادر إلى ظننا انها ستنظر ثانية إلى رجل آخر. فأنت بالضبط من تحتاج إليه.»

هل ظن شقيقا كاثلين انها قد اخذته على هذا المحمل؟ وبأنها كانت تهتم لأمره؟ وقال لهما: «قد تخطئان ان حسبتما ان كاثلين قد اعتادت علي، ليس الأمر على هذا الغرار مطلقاً.»

تبادل نك وسام نظرات استفهام ثم قال نك: «أحسب أننا على خطأ، لقد تبادر إلى اذهاننا من طريقة نظرتها اليك بأنكما حميمان.»

«قد تكون علاقتنا حميمة، لكن كاثلين تعتقد بأن هذه العلاقة يجب ان تصبح اكثر نضجاً، فكاثلين منشغلة بالطفلة، ولا تفكر بي.»

عاد سام وتبادل نظرة أخرى مع أخيه، ثم قال لروس: «كانت ترغب في طفل منذ وقت طويل، لكن ما سأقوله يبقى سراً بيننا نحن الثلاثة، أنا لا اعتقد بأنها ستتوفق بحضانة ستورمي.»

«أوافقك الرأي.» اجاب نك بقنوط: «لا أرى ان قاضياً قد يسلمها الطفلة في حين ان هناك العديد من الأزواج الذين يتوسلون كي يحضنوا طفلاً.»

حول روس نظره من نك إلى سام، وعاد فنظر إلى نك، ثم قال: «انها ستقضي حزناً ان لم تستطع الاحتفاظ بالطفلة.»

أجاب سام: «نعرف، لذلك نحن سعداء بأن لديها شخصاً مثلك، ستحتاج اليك كي تساعدها لتتغلب على خيبة أملها.»

www.elromancia.com

الفصل العاشر

سكنت كلمات سام هذه فكر روس لباقي ساعات النهار، وتلك الليلة وهو عائد من مزرعة عائلة غالاغر، كان قد حزم أمره.

«هل تمانعين في أن أدخل، يا كاثلين؟» سألها ذلك وهو يوقف محرك سيارته. «هناك أمر أريد ان احدثك بشأنه.»

كان قد أمضى معظم ساعات النهار، بعيداً عن كاثلين، وقد فاجأها بسؤاله.

«ما الأمر؟» سألته بعدما جمعت أغراض ستورمي ودخلا المنزل.

أومأ باتجاه الطفلة، ثم قال: «لنضعها في السرير أولاً.»

«حسناً.» وافقته الرأي، متعجبة من نبرة صوته الصارمة. «ماذا هناك؟» هل سيقول لها انه من الأفضل لهما ان يكف عن رؤيتها ورؤية الطفلة؟ لقد هزتها هذه الفكرة.

بعد ان وضعت كاثلين ستورمي في السرير، خلعت حذاءها وتوجهت إلى المطبخ، لتحضر إبريقاً من القهوة الطازجة، وتبعها روس متسائلاً كيف سيتدبر أمر التحدث اليها لخمس دقائق دون ان يتمكن من لمسها.

بدأت كلامها قائلة: «آمل ألا تكون عائلتي قد جرحت شعورك بطريقة أو بأخرى. احياناً تتكلم والدتي وشقيقي نك بصراحة متناهية، اتمنى ألا يكون احدهما قد أثار غضبك.»

اشار بيده معترضاً على كلامها، ثم انحنى فوق الطاولة،

وهو على بعد خطوة أو خطوتين منها، وقال: «لا شيء من هذا القبيل، عائلتك رائعة، لقد عملوا ما بوسعهم ليغمروني بلطفهم.» قال روس ذلك ثم صمم على ان يبقى على مسافة منها، فجلس على كرسي الطاولة في وسط الغرفة، وتابع: «لكن ما يشغلني ليس عائلتك، كنت قد أمضيت اليومين الماضيين منشغلاً في التفكير...»

قطعت كاثلين التيار الكهربائي عن ماكينة القهوة، ثم استدارت وجلست إلى الطاولة. «ما الأمر؟» سألته وهي تأمل ألا تبدو مشدودة كما كانت تشعر.

«الأمر يتعلق بي وبك وبستورمي.»

بدأ قلب كاثلين يخفق بسرعة، ثم شعرت بدوار في رأسها، سألته: «ماذا بشأننا؟»

لم يستطع روس ان يبقى بعيداً عنها، فنهض ثم وقف امامها، لم يستطع التفوه بكلمة فيما وقف يحدق بها، ثم قال: «اظن ان علينا ان نتزوج.»

صعقت كاثلين بالخبر، وأحست انها عاجزة عن الوقوف: «نتزوج! ماذا تقول يا روس؟»

أراد روس ان يبدي عدم تأثره ولا مبالاته، لكنه لم يستطع جمع تلك العواطف التي كانت تسيطر على صوته، لم يسبق ان احب امرأة، ولم يكن قبل ذلك مالكاً الجرأة ما يكفي ليفصح عن مشاعره، لكن قلبه لم يخطىء هذه المرة، ولم يكن قد شعر بالخوف فيما مضى مثلما يشعر الآن.

«أردت ان اقول ان كنت حقاً ترغبين بحضانة ستورمي فعلينا الزواج. وطبعاً، سيكون الأمر شكلياً دون تدخل من المحكمة.»

حدقت كاثلين به وقد اصابها دوار، واستفسرت قائلة: «تعني انك ستقدم على هذه الخطوة من أجلي؟ ومن أجلها؟»

لاحظت كاثلين انها لو لم تكن تستند إلى الطاولة، لسقطت على الأرض، كان روس مستعداً للزواج منها، رأفة بها وبالطفلة. إنها لفتة إنسانية لم تسمع كاثلين بمثلها من قبل، لكن من ناحية أخرى شعرت بأنها مجروحة الخاطر، لأنه لم يتقدم لطلبها، حباً بها.

قاطعته وهي تتأمل وجهه: «هل أنت حقاً جاد؟»

ضم ذراعيها بيديه، وأجاب: «إني جاد للغاية، أريدك ان تحصلي على ستورمي.» أراد لها ذلك بقدر ما أرادها ان تكون زوجته، وقد يقوم بفعل أي شيء ليرى هذين الأمرين يتحققان.

«آسفة، يا روس لا يمكنني ان ارتبط بك في ظل هذه الظروف، أو أية ظروف أخرى.»

ودون ان تنظر في وجهه انصرفت عنه وغادرت الغرفة، تبعها روس إلى الردهة ومن ثم إلى غرفة الجلوس، وسألها: «لم لا تستطيعين؟ ما المزعج في الأمر؟ قد تحصلين على الطفلة التي طالما حلمت بها، وحينها يرتاح بالي بأنها في مكان أمين، ثم فيما بعد ان أردت يمكننا الانفصال.»

انفصال! كم من مرة، اطلق غريغ هذه الكلمة في وجهها؟ وتساءلت بهيستيرية، لم تكن قادرة ان تمنحه الطفل الذي يرغب به، كما لم تكن قادرة على إسعاده. فقد طلب الانفصال عنها، كي يجد امرأة، تمنحه هذين الأمرين. والآن مجرد ان لفظ روس نفس الكلمة، شعرت كاثلين وكأنها قد طعنت بسكين. «لا أريد الزواج! ألا تفهم ذلك يا روس؟»

ومشت بتوتر إلى النافذة التي تطل على مرجة امام منزلها، وتبعها روس ثم وقف خلفها تماماً، وقال: «اني افهم انك قد خضت تجربة زواج سيئة. وقد علمت من شقيقيك كم كان غريغ سيئاً، لكن يجب ألا تؤثر تلك التجربة عليك وعلي، فأنت لن تتزوجيني حباً بي.»

شعرت كاثلين وكأنها طعنت بخنجر، ان أرادت فعلاً الزواج من روس، فسيكون ذلك حباً به، لذا لا يمكنها الزواج منه، فستعرض نفسها لشتى انواع الأذية، لقد أرادت ستورمي بشدة، لكنها لن تخاطر بتورط من هذا النوع، فقط لتمنح فرصة الاحتفاظ بالطفلة.

وأطلقت ضحكة هشة. «كان لدي ما هو أسوأ من زواج سيء، يا روس، والمذهل في الأمر، أني لم الاحظ حتى مدى قباحته الا عندما توفي غريغ. اظن اني في السنوات الثلاث التي مرت على زواجنا، كنت مغمضة العينين، حاولت ان اقنع نفسي بأن كل شيء كان على ما يرام، لكن عندما قضى... كان عليّ ان أواجه اخيراً بالحقيقة.»

وقبل ان يتفوه بكلمة استدارت كاثلين لتواجهه، وتتابع: «ما الذي اخبراك شقيقاي به؟ هل اخبراك بأنه عندما هوت الطائرة بزوجي كانت صديقته معه؟»

شعر روس بكآبة، لتلك الصورة السوداء التي رسمتها له كاثلين. «تعنين... ماتت معه؟»

بعد ان تجمدت ملامحها، أومأت برأسها قائلة: «نعم تلك المسكينة، احياناً أحس وكأن الحظ انصفها وقضى على حياتها بدل ان يمنحها الحياة لتبقى مغرمة بغريغ هايز. لو بقيت حية، لما كانت حصدت منه إلا الأذية.»

«آه، يا كاثلين، كيف تمكنت من العيش معه! هل كنت تعرفين بأمرها قبل وقوع الحادث؟»

سخرت من نفسها بصوت خافت: «كانت لدي ظنوني لكني تغاضيت عنهما... وكنت دائماً اواصل التفكير...»

أبعدت نظرها عن وجه روس، وهي غير قادرة ان تتابع حديثها معه، لم تتجرأ ان تخبر روس بأنها استمرت في العيش معه، وكلها أمل بأن تحمل منه وتمنحه ولداً، حينئذ قد يتحسن زواجهما، ويصبح لديها عائلة كانت ترغب بها، لم تحتمل فكرة اخباره انها كانت عاقراً، وليست كسواها من النساء.

تابعت كلامها: «لا يهم ما كنت افكر به، لا استطيع الزواج منك، ولا من أي شخص آخر!»

هز روس رأسه باستياء، وأوضح لها: «لكن زواجنا سيكون مختلفاً يا كاثلين، لن يكون زواجاً حقيقياً تغمره العواطف والحب، سيكون وسيلة شرعية، هذا كل ما في الأمر.»

وسيلة شرعية! كيف يتحدث عن شيء مقدس كالزواج بمثل هذه الطريقة؟ كانت تظنه مختلفاً عن سواه من الرجال، ويتحلى بشهامة اخلاقية. لكن على ما يظهر نظرته إلى الزواج كنظرة غريغ له، انها الوسيلة فقط يستعملونها ليبرروا غايتهم.

«كيف يمكنك ان تخاطبني على هذا النحو؟» همست بحدة، وانهمرت الدموع من مقلتيها: «انك شبيه بغريغ، فالزواج لا يعني لك شيئاً! انه وسيلة للحصول على ما تسعى إليه، ساعة تحتاجه، وان لم ينجح... حسناً.» تابعت بضحكة أليمة:

«هناك دائماً الحل... الطلاق. أنت لا تفهم انه يفترض في الزواج أن يكون مقدساً، وأن يستمر مدى الحياة!»

انصرفت عنه وهي تلهث باكية، ثم غطت وجهها بيديها الاثنتين، قائلة: «لا اريد التحدث حول هذا الموضوع ثانية يا روس.»

لم يشعر روس في حياته بالارتباك كما شعر الآن، وهو يرقب كتفيها وهما يرتجفان وهي تنتحب بصمت.

لم يكن يتوقع ان تكون ردة فعلها على هذا الشكل، وقبل ان يطلب يدها للزواج كان يداري وضعه كي لا ترفض، لأنه كان يتوقع ذلك، لكنه لم يتوقع ردة فعلها العاطفية هذه، ولم يتفهم الوضع تماماً، فهو لم يطلب منها ان تحبه، على الرغم من انه كان يحتاج إلى حبها، كان يحاول مساعدتها. لِمَ لم تلاحظ ذلك؟

تجرأ روس على الاقتراب منها، ثم لمس ذراعها بيده. «اني لم اطلب الزواج منك كوسيلة لايذائك، يا كاثلين.» قالها بلطف، آملاً ان يزيدها طمأنينة.

وهي تدير ظهرها إليه هزت رأسها وقالت: «ارجوك اتركني لوحدي يا روس.» قالت ذلك بصوت متقطع وقد غمرت عينيها الدموع: «لم اعد قادرة على الاحتمال الآن ارجوك.»

كان روس يعلم جيداً ما معنى ان يكون منبوذاً من قبل شخص، فهو امر خاض تجربته طيلة حياته، لكن ان تنبذه كاثلين، فالأمر مختلف كلياً. غادر المكان وهو يشعر بألم في صدره لم يعهد مثله من قبل.

صباح اليوم التالي استيقظت كاثلين وهي تشعر وكأنها ميتة جسدياً وعاطفياً. بعد ان ترك روس منزلها، جلست

تبكي حتى جفت دموعها، ثم استلقت في سريرها، مستيقظة في العتمة، تفكر بكل كلمة قالها روس، وتتألم نادمة على كل كلمة قالتها له.

لم يكن يستحق روس ذلك الانفجار العاطفي الذي ظهر منها، كان يحاول مساعدتها لتحصل على ستورمي، لم يقدر ان يتكهن ان كاثلين كانت مغرمة به، والليلة الماضية عندما طلب الزواج منها تشابك ذلك الحب بكل ما كان يقوله وبكل ما كانت تشعر به.

لا بد انه افتكرها مثال المرأة الهستيرية المحطمة، هذا ما كانت تفكر به وهي تئن مستهزئة من نفسها، لكنه حين تحدث عن زواج شكلي، احست كاثلين وكأن قلبها انشطر إلى اثنين، لم تكن موافقة على الفكرة التي تقدم بها. إذ كانت تطمح إلى اكثر من ذلك، لكن عليها الآن ان تنسى أمر الزواج بشكل كلي.

لن تستطيع ان تتزوج من روس، فالعيش معه تحت سقف واحد سيحول دون اخفائها لحقيقة مشاعرها، وفي حال اكتشف ان كاثلين كانت تحبه فسيشعر بالغبن وسيجبر على البقاء مرتبطاً بها، لا، لا يمكنها ان توافق على زواج كهذا، سيبدو وكأنها تعيش كابوس زواجها من غريغ من جديد. فروس لا يحبها، وعاجلاً أم آجلاً، سيلتقي بامرأة يحبها، وينجب اطفالاً منها، وحينئذ ستضطر لأن تدعه يرحل.

كانت كاثلين قد انتهت من استحمام ستورمي، والبستها بيجامة النوم، عندما رن جرس الهاتف. وهي مسرعة لتجيب تمنت ان يكون الصوت الذي تسمعه على الطرف الآخر من الخط صوت روس.

لقد فاجأها ضابط الشرطة بصوته، وهو من كانت قد تحدثت إليه مع روس حول موضوع ستورمي.

وسألته على عجل: «كيف يمكنني ان اخدمك هذا الصباح حضرة الرقيب؟»

«اني اتصل بك لأعلمك بأننا قد وجدنا الشخص الذي ترك الطفلة في رواق السيد دوغلاس.»

لم تستطع كاثلين ان تخفي دهشتها: «من هو؟ هل هو شخص من المنطقة؟» أخذ قلبها يخفق جزعاً. «وماذا عن الأم؟»

«اظن يا سيدة هايز انه من الأفضل لك ان تنزلي إلى الدائرة هذا الصباح متى تمكنت من ذلك، عندها نجيب على اسئلتك كلها. اتفقنا؟»

على الفور اخذت كاثلين ترتعش جزعاً، هل سيأخذون الطفلة منها الآن؟ كانت تحتاج لأن يكون روس معها، وقالت: «نعم حسناً سأكون هناك في وقت قريب.»

بعد انقضاء اسبوع على وجوده في المنطقة، بدا روس متشوقاً للرجوع إلى صفه في المدرسة. وهذا الصباح كان أول يوم عمل له، لكنه كان منزعجاً بشكل خاص، ليس بسبب تلامذة فظين ومشاكسين، بل لأنه كان غير قادر على التركيز. وحيث ان نصف افكاره تركزت على كاثلين، لم يكن قادراً ان يحاضر حول موضوع التاريخ الأميركي امام صف من الشباب.

كان خائفاً ان يكون عرضه للزواج من كاثلين، قد غرس وتداً بينها وبينه، لن يتمكن من نزعه مطلقاً، لكن الآن لن يتسنى له ان يشغل تفكيره بالموضوع إذ لديه صف آخر بعد

نصف ساعة، فقد اعد محاضرة ليلقيها امام طلابه حول مونرو دوكترين، وكان قد بذل جهداً كي لا يخرج طلابه من الصف وهم يتثائبون.

جذب انتباهه صوت طقطقة كعب عال على أرض البلاط، أدار رأسه باتجاه عتبة الباب، متوقعاً ان يكون القادم زميلة له في التعليم، اتت لتهنئته بقدومه إلى المنطقة، وبدلاً من ذلك، فقد تفاجأ بكاثلين تدخل القاعة، قالت له: «آمل اني لم اقاطعك قال لي المدير بأني قد اجدك هنا.»

هز رأسه بإعجاب، وهو يفكر كم كانت رائعة الجمال، لقد ارتدت فستاناً اسود طويلاً مزرراً بأزرار ذهبية كبيرة حتى ركبتيها، وقد وضعت وشاحاً مزيناً برسوم ذهبية وسوداء، ربطته حول رأسها لترفع شعرها الأسود عن وجهها.

لاحظ روس انه كان منبهراً بجمالها، بقدر وجودها معه، ثم لاحظ شيئاً آخر، اذ لم تكن الطفلة معها، سألها بسرعة: «أين ستورمي؟ انهم لم يأخذوها منك، أليس كذلك؟»

رفعت يدها لتطرد مخاوفه. «كلا، انها مع أمي في المزرعة.»

ثم تقدمت رويداً في الغرفة، فهب روس من مكانه، متفاجئاً، لانها كانت تبدو بحالة مضطربة.

«ما الخطب يا كاثلين؟»

«لا أدري، اعني، نعم... انه...»

انتظر كي تتابع حديثها وعندما لم تنطق دار حول مكتبه ثم امسك يدها قائلاً: «يا كاثلين، انت ممتقعة اللون وترتجفين مثل ورقة، هل حدث أمر ما؟»

إنه لأمر مضحك فمجرد ان سمعت صوت روس تحسن

حالها، نظرت اليه وحاولت ان تبتسم قدر ما استطاعت، ثم قالت: «أولاً، أود ان اقدم لك اعتذاري عن ليلة البارحة، فقد تفوهت باشياء مزرية امامك، اشياء اعرف انها ليست صحيحة، انت لست مثل غريغ، واعتذر لأنني قارنتك به.»

مد يده ولمس خدها، مجيباً: «لست بحاجة لتعتذري لي يا كاثلين.»

«نعم، عليّ بذلك لأني لا اريدك ان تتأذى كما لا اريدك ان تغضب مني.»

فكر بصمت، ان آخر شيء يفكر به هو ان يغضب من كاثلين. «ان كنت قد قطعت كل تلك المسافة إلى هنا لتطلبي مني ألا أكون غاضباً منك فأنا لست كذلك الآن.»

رق صوته وهو يلفظ آخر عباراته.

«اني سعيدة لذلك.» قالت ثم تنهدت متابعة: «لقد عدت لتوي من مركز الشرطة، فقد وجدوا الشخص الذي ترك ستورمي في رواقك.»

شد روس على كتفيها بقوة، وسألها: «من هو؟ هل سجنوه أو سجنوها خلف قضبان السجن؟»

طأطأت كاثلين رأسها، وأجابت: «نعم، لكني لا أرى ان السجن وراء القضبان سيجدي اي نفع الآن.»

«من هو الفاعل، هل هو الوالد؟»

«كلا لم يكن والد الطفلة. بالرغم من اني اظن انه كان على علم بالأمر، وبما انه لم يكن يريد الطفلة، فلم يهتم لما كانوا سيفعلون بها.»

في تلك اللحظة بالذات، شعرت بارتخاء في ركبتيها، فمدت يدها إلى ذراعه. «اني آسفة يا روس، يجب ان اجلس.»

قادها روس إلى مقعد خشبي طويل مقابلاً لنافذة زجاجية، وانعكست أشعة الشمس على الاثنين ثم غمرت وجه كاثلين الممتقع بالدفء الساحر.

انتظر روس بصبر فيما هي اخذت تلتقط انفاساً عديدة وطويلة، محاولة ان تستجمع قواها.

ثم قالت له: «في الحقيقة ان الجد هو من ترك الطفلة امام منزلك، وعلى ما يظهر فالعائلة بأجمعها فقيرة الحال معدمة وغير مثقفة، وقد حملت الابنة بطريقة غير شرعية، وبما انها صغيرة السن ولا تستطيع الاحتفاظ بالطفلة، فقد قرروا التخلي عنها.»

اخذ روس يومىء برأسه وكأنه لم يصدق ما كان قد سمعه. «لكن لماذا؟ ولِمَ يعطونها لي؟»

«ذلك الجزء... أظن انه الجزء الأغرب والأكثر حزناً، لم يكن أي واحد منهم يريد الطفلة، فقد اعتبروها عبئاً ثقيلاً عليهم. لكن الأم ارادتني ان آخذ الطفلة.»

اصيب روس بذهول: «أنت! لا بد انه شخص يعرفك؟»

هزت كاثلين كتفيها، وكأنها مثله لا تدري ما يدور حولها، وأجابت: «بالكاد انكر الفتاة يا روس، مما اتذكره، انها كانت تلميذة في صفي، وانها كانت تأتي إلى المدرسة، ربما يومين في الأسبوع، حاولت اعطاءها اهتماماً خاصاً، اظن انها تذكرت ذلك بلاريب، لا أدري في كل الأحوال، اخبرت الشرطة ان والدها كان ينوي أخذ الطفلة إلى منزلي، لكنه على ما يبدو ضاع بين المنزلين، وانتهت الطفلة في رواق منزلك.»

«هذا غير معقول!»

طأطأت كاثلين رأسها: «أعلم انه أمر لا يصدق ومحزن أيضاً.»

كان يحدق اليها، وفي الوقت نفسه تلمع في رأسه افكاراً جيدة.

«إذن! ما معنى هذا كله؟ ماذا سيحل بستورمي؟»

«لقد تنازلت الفتاة واهلها للسلطة خطياً عن حقهم في الفتاة، وسيدوّن اسمها على لائحة الحضانة.»

سألها بلطف: «وهذا يخيفك، أليس كذلك؟»

طأطأت رأسها موافقة، وعيناها تملأهما الدموع. ثم همست: «لا تتصور كم أنا خائفة.»

انحدرت دمعة على خدها، قام روس بمسحها بباطن اصبعه، كان يريد مساعدتها، قد يفعل أي شيء كي تكون سعيدة، ان سمحت له بذلك فقال لها: «لذا علينا ان نتزوج يا كاثلين، ان وجدتنا المحكمة متزوجين، فان فرصتنا بالحصول عليها ستكون اكبر بكثير، هل تعلمين ذلك؟»

كانت تعلم اشياء كثيرة، وعلى رأس هذه الأشياء، انها لا تستطيع الزواج من هذا الرجل، حتى ولو على حساب خسارتها لستورمي، قالت وهي تهم بالنهوض: «أعرف يا روس لكني لم ابدل رأيي.» فكر بإحباط وشبك اصابعه بشعرها... ماذا عليه ان يفعل؟ ماذا عليه ان يقول لها لتفكر بمنطق؟

كانت مجموعة من الشباب تتحرك بفوضى في القاعة الكبرى خارج غرفة الصف، وحين رأتهم كاثلين تصورت ان فرصة الغداء قد قاربت على الانتهاء. وعلى وشك ان يقرع الجرس فقالت: «عليّ ان أذهب.»

«كاثلين، يجب ان نتحدث حول هذا الموضوع.» اجابها بذلك وكان يشد على ذراعها بقوة، وهي تحاول الانصراف، وعيناها تناشدان عينيه بأن يسامحها، اومأت برأسها: «هذا خطأ كل ما نقوم به، خطأ يا روس.»

لم يكن هناك ما يمنعه من ان يحبها ويرغب في الزواج منها، لكن كيف له ان يخبرها بذلك، وهي تتعلق بماضيها؟ فقد رفضت حبه، ولم ترض ان تكون زوجته، فكل ما كانت تريده هو الطفلة، انه أمر كان يعلمه منذ البداية لكنه لم يعد يؤثر فيه الآن.

فجأة قرع الجرس، وبدأ الطلاب يتدفقون إلى الغرفة، فأجبر روس على ان يرخي يده عن ذراع كاثلين.

وفي الدقيقة التي رفع يده عنها اندفعت من الباب، دون ان تفسح له فرصة ليقول لها أي شيء آخر.

اطرق يفكر بكآبة، وهو يعود إلى مكتبه، ليجمع ملاحظاته الخاصة، لمادة التاريخ.

الآن بالضبط لا يدري ما قاله أو فعله حتى يدب خلاف في الرأي بينه وبينها، لعله لن يستطيع ان يجد جواباً على سؤاله هذا.

الفصل الحادي عشر

عادت كاثلين إلى المزرعة لتأخذ ستورمي إلى منزلها وحين روت على مسامع عائلتها ما علمته من دائرة الشرطة، ارتسمت علامات التعجب على وجوههم، فقد شغلهم اهتمام كاثلين المتزايد بالطفلة، وتخوفوا ان يحصل لها شيء ما في حال فقدت الطفلة.

وكان سام اكثرهم قلقاً عليها، فقد لحق بها إلى السيارة حيث كانت تتأهب لمغادرة المكان. واقترح عليها بأن تمضي الليلة معهم، وهو يسلمها الطفلة.

ابتسمت بكآبة، وهي تستلم ستورمي منه وتضعها في السيارة ومن ثم تربط لها حزام الأمان، لطالما كان سام يخاف عليها، ففي كل مرة كانت تتعرض فيها لمشكلة أو تحتاج لمساعدة، كانت ترجع اليه، فيعمل ما بوسعه لمساعدتها لكن هذه المرة كانت مخاوفها كبيرة من ألا يتمكن احد من فعل شيء حيال هذا الأمر.

لقد اخطأت في الوقوع بحب شخص لا تستطيع ان تحظى به، وطفلة لا تستطيع الاحتفاظ بها، فكيف حري بأحد ان يساعدها؟ نظرت إلى شقيقها، وقالت: «لا اظن يا سام. عليّ العودة إلى البيت لعل لجنة حقوق الطفل تحاول ان تتصل بي الليلة.»

هل تعتقدين ان الأمر سيتم في وقت قريب؟» سألها وهو يغلق باب السيارة، ثم اسند برأسه على النافذة المفتوحة.

أدارت رأسها بكآبة: «أظن ذلك، فقد صرح باركر

مونتغمري بأن الوصاية الآتية تستمر فقط لعدة ايام على الأكثر، أو لحين ان يجدوا الزوجين المناسبين. إني متأكدة من أني سأضطر لتسليمها لهم في الأيام القليلة القادمة.»

ربت على كتفها وقال: «كاثلين لا احتمل رؤيتك تتمزقين هكذا.»

شدت كاثلين بيديها على عينيها الموجعتين، وأجابت: «قد تكون هذه فرصتي الوحيدة كي احصل على الطفلة آه، يا سام اني متخوفة من ان اخسرها.» ثم رفعت يديها وعاودت النظر في وجه أخيها القلق. «لقد طلب مني روس ان اتزوج منه، قال ان الزواج قد يمنحني فرصاً اكبر في حضانة الطفلة.»

صمت روس للحظة دون ان يتفوه بكلمة، وكانت كاثلين تراقب ردة الفعل على وجهه، لطالما كان الأمر دائماً صعباً مع شقيقها... كي يتمكن الانسان ان يتكهن بما كان يجول في خاطره، والشيء الوحيد الذي تغير في قسماته، كان تقوس لأحد حاجبيه السوداوين.

«قد يساعدك الزواج، على الارجح...» قال بعد ان انقضت عدة لحظات: «وبماذا أجبته؟»

اجابت كاثلين على سؤاله بغصة مسموعة: «ماذا تعني، بماذا كان عليّ ان اجيبه؟ بالطبع يا سام كان عليّ أن ارفض.»

«لماذا؟ بسبب ما اصابك من غريغ؟»

بالفعل، كان زواجها من غريغ قد ترك في نفسها أثر جرح لا يمحى، لكن كاثلين كانت مدركة ان السبب الرئيسي لتمنعها عن الاقتران به كان حبها له، لكن لم تكن قادرة على

البوح بذلك لأخيها، فعاطفتها تجاه روس كانت حديثة العهد، وشأناً يخصها وحدها، وشيء عزيز على قلبها لا يسعها ان تشارك به احداً.

وأجابت: «ألا يكفي ذلك السبب؟»

تجهم وجهه: «ماذا ستفعلين، ستطلقين العنان لذاكرتك بأن تخرب عليك حياتك.»

همت كاثلين تريد ان تدير محرك السيارة لتنهي الحديث بينهما. «الأمر ليس بتلك البساطة صدقني.»

امسك سام خصلة من شعرها وشدها برفق، وهو يقول: «فقط تذكري يا أختي، اني اعلم مدى المعاناة التي يعيشها الانسان، فقد عشت حياة جحيم إلى أن عادت أوليفيا من أفريقيا. نحن بحاجة دائماً لأن يحبنا أحد، وأنت لا تشذين عن القاعدة.»

نعم، في الحقيقة كانت بحاجة لمن يحبها، وبقيت كاثلين تفكر بهذا الأمر طوال الوقت اثناء عودتها إلى منزلها، لكنها لم تترك المجال لروس كي يحبها، خارج إطار الزواج الشرعي.

بعد عودة روس من المدرسة إلى منزله قرر ان ينزل بسيارته مباشرة إلى منزل كاثلين، فلم يجدها هناك.

عاد خائباً إلى منزله، محاولاً تهدئة نفسه، حتى لو كانت في المنزل، فقد كان يساوره الشك في أنه سيستطيع محاورتها بمنطق، بطريقة أفضل تختلف عما قام به في وقت سابق من هذا اليوم.

حتى الآن، لم يستطع طرد ذلك الشعور اليائس والعاجز، الذي كان يخيم عليه، وكأن متفجرة قد ربطت إليه، وان لم

يقو على عمل شيء لوقفها من الانفجار، فهو خاسر كاثلين لا محالة. سيخسر ان الطفلة، والعائلة التي كان يريدها بقوة، ستضيع منه إلى الأبد.

بقي روس لساعة يتمشى امام منزل كاثلين ويراقب الطريق كي يلمح سيارتها. وأخيراً عندما وقع نظره عليها وضع جاكتته عليه وأسرع إلى شاحنته.

كانت كاثلين قد دخلت لتوها إلى المنزل، وهي تضع ستورمي على الكنبة حين سمعت هدير سيارة روس، واتجهت لتفتح الباب، خفق قلبها على الرغم من الهواجس التي تملكتها حول بقائها وحيدة معه. وسألها: «هل تسمحين لي بالدخول؟»

كيف عليها ان تصده، في حين كانت تتشوق في داخلها لتكون برفقته؟ دفعت الباب على مصراعيه، وابتعدت لتأذن له بالدخول.

قالت له: «لقد عدت لتوي إلى المنزل.»

قال: «اعرف كنت اترقب مجيئك.»

عندما دخل إلى الغرفة رأى ستورمي مستلقية على الكنبة، فقد ارتاح لرؤيتها من جديد... انتشلها من عربتها وحملها على مقربة من صدره.

لم تتفوه كاثلين بكلمة، إذ كانت منشغلة ترقبه وهو يحمل الطفلة.

لقد كان واضحاً انه يحب الطفلة، راحت كاثلين تتساءل عن السبب الرئيسي الذي يدفعه للاقتران بها، فهل يريد ان يمنح نفسه فرصة لأن يكون والداً لستورمي؟

وكررت عليه السؤال: «كنت تترقب قدومي، لماذا؟ هل

هناك سبب يحتم عليك ان تراني؟ هل اتصلت بك الشرطة بخصوص أمر ما؟»

كان يحضن رأس الطفلة بيده بحذر، ثم رفعها لتصبح بمستوى كتفه، وشد بخده على خدها.

كانت تفوح منها رائحة بودرة ناعمة وحلوة وبريئة.

لم يكن يعرف ان الاطفال لهم مثل هذه الرائحة.

لم يكن يعلم انه مسؤول عن حماية مخلوق صغير كهذه، ولم يحلم ابداً بأنه سيشعر بالأبوة. لكنه يريد فعلاً ان يكون والداً، بقدر ما يريد ان تكون كاثلين زوجته.

أجابها: «كلا، على الأرجح انهم الآن قد انهوا القضية.»

«إذن لم اردت رؤيتي؟»

أعاد الطفلة إلى الكنبة، لكنها سرعان ما بدأت بالصراخ فحملها ثانية.

«اتصور انها جائعة.» قالت كاثلين ذلك وهي في طريقها إلى حقيبة الطفلة لتأتي بزجاجة حليب: «سأذهب لأسخن زجاجة الحليب وأعود.»

بعد دقيقتين، عادت كاثلين بزجاجة حليب ساخنة، اخذها روس وجلس ومعه ستورمي على إحدى الكنبتين.

في الوقت الذي كان روس يطعم الطفلة، ذهبت كاثلين إلى المطبخ لتحضر إبريقاً من القهوة الطازجة، وصينية وضعت عليها بعض السندويشات. لم تكن هي جائعة، انما تصورت ان روس قد يكون كذلك، كانت في الوقت نفسه تحاول ان تشغل نفسها كي تبقى بعيدة عنه قدر الامكان.

«لست مضطرة ان تقومي بذلك من أجلي.» قال ذلك وهو يومىء برأسه إلى حيث وضعت السندويشات.

نظرت كاثلين من حولها، فوجدت ان روس قد اصبح في المطبخ، وبعصبية التقطت فوطة ومسحت بها يديها.

«حسبت انك لم تأكل شيئاً هذا المساء، هل فعلت؟»

هز رأسه، كان متشنجاً ولم يستطع ان يتناول أي طعام.

«لم آت إلى هنا كي تحضري لي شيئاً آكله.»

حملت صينية الطعام لتضعها على طاولة المطبخ، ثم اخذت تحدق اليه وهو جالس إلى الطاولة قبالتها، ثم سألته:

«أين ستورمي؟»

«نائمة، وضعتها على سريرك، غطيتها ووضعت وسادتين على جانبيها.» اضاف جملته بسرعة قبل ان يعطيها فرصة لتجيب.

«لقد تذكرت.» قالت بهدوء وغدت عيناها رقيقتين، وهي تنظر في وجهه.

قال بصوت خافت: «اني اتذكر الأشياء اكثر مما تتصورين.» وكاثلين كانت تذكر أيضاً فقد تذكرت كل لحظة قضتها بين ذراعيه، كما تذكرت كل تنهيدة وقبلة وكلمة قالها لها.

كان كل ذلك يشتعل في مخيلتها، وكأن روس كان قد طبعها به من دون ان يتملكها... سببت هذه الأفكار تورداً في وجنتي كاثلين، مما اجبرها على أن ترد نظرها عنه.

قدمت له فنجاناً كبيراً من القهوة، وهي تقول: «اخبرت اهلي بما اعلمتني به الشرطة، كما تحدثت بالموضوع مع باركر مونتغمري.»

تناول روس قضمة من سندويشه، لكنه شعر وكأنه يقرط قطعاً من حطب، فما حري به ان يقول؟

بقيت للحظة لا تستطيع ان تنظر في عينيه، ثم هزت كتفيها، انه غير قادر على أن يشعرني بشيء من الاطمئنان، على الرغم من ان وصايتي الآتية قد تنتهي بين يوم وآخر.

بدا عليها وكأنها قد استسلمت للأمر الواقع، فما كان من روس الا ان مد يده وهزها قليلاً وقال: «لا يسعنا التباطؤ في الموضوع اكثر مما حصل. كاثلين علينا بالزواج، الآن أو غداً بأسرع ما يمكن.»

لم تجبه كاثلين، بل أخذت تحدق شاردة الأفكار، بالطرف الآخر من الغرفة، وتسائل نفسها كيف ستبدو حياتها، لو ان روس والطفلة تخليا عنها.

«كاثلين هل سمعت ما قلته؟»

التفتت لتنظر اليه وقد صممت على مواجهته بقلب جريء: «روس، لما تحاول إزعاجي بهذا الموضوع، فقد اجبتك بكلا وكنت اعنيها، لن اتزوجك الآن أو في أي وقت من الأوقات.»

وضع السندويش على الصينية، واخذ يفرك وجهه بكلتا يديه المتعبتين. «إذن كل ما استطيع قوله هو انك لا تريدين ستورمي إلى حد كبير.» أرادت كاثلين ان تصوب اليه لكمة من قبضتيها، وان تصرخ في وجهه لتبرهن له كم كان خاطئاً، لكن كل ما امكنها فعله هو انها حدقت به بقوة، فيما أحست بألم فاتر يتسلل إلى جسمها.

«كيف تجرؤ على التفوه بمثل هذا القول أمامي! أنت لا تعرف كم تساوي هذه الطفلة بالنسبة لي.» تابعت بصوت خافت: «أنت لا تعرف كم أنا أريدها!» كل تلك الشكوك والظنون التي كانت قد شعرت بها خلال الأيام القليلة

الماضية تجمعت فجأة في حنجرتها، وتكاد تخنقها جزعاً، وبغصة خانقة، نهضت عن مقعدها وخرجت مسرعة من الغرفة قبل ان تمنحه الفرصة بأن يوقفها.

بعد لحظات قليلة وجدها روس في احدى غرف النوم الإضافية، كانت جالسة على حافة السرير، وقد بدا كتفاها مترهلين ورأسها منحنياً إلى الأمام. جلس إلى جانبها ورفع وجهها مقابل وجهه. فوجد دموعاً تبلل خديها.

أحس انه طعن في الصميم، لدى رؤيته تلك الدموع، وفي تلك اللحظة كان كل مراده ان يضمها بين ذراعيه، ويمسح بقبلاته تلك الدموع عن خديها. «آسف يا كاثلين! ربما كنت مخطئاً!»

«كنت مخطئاً؟!»

رفع يديه الاثنتين عالياً، ثم انزلهما بعجز حتى ركبتيه، «اني لا افهمك يا كاثلين.»

كانت ترتجف كحيوان وقع في فخ وغير قادر على التحكم بمصيره. «كلا، أنت لا تفهم ياروس، لأنك لا تعرف وان علمت هل ستتمكن من معرفة سبب تعلقي بستورمي إلى حد كبير.»

مد يده ولمس بها احدى وجنتيها وقال: «إذن اخبريني يا كاثلين، انني اكاد اتمزق من الداخل، وارغب في مساعدتك، لكن اجهل بأية وسيلة.»

شيء ما في صوته، دفع بها على الفور لتنظر اليه، وأدركت انها لم تعد تطيق التفكير بنفسها فقط، وبمشاعرها ورغباتها، كان عليها ان تفكر الآن بروس وبما يتسبب له فقالت: «السبب هو أنا...» هزت رأسها وتوقفت عن الكلام ثم

حدقت به من جديد. «الحقيقة يا روس اني لا استطيع الانجاب.»

شعر روس وكأنه طعن في صدره، ثم تغير مزاجه، كاثلين حلوته كاثلين، لا يمكنها ان تنجب، لم يكن يصدق ما يسمعه! ولم يرغب في ان يصدق ذلك!

«كاثلين... أنا... لِمَ لم تخبريني؟»

تعجبت إذ سألها مستفسراً، وراحت تتفحص وجهه بعينيها، وهي تجيب: «لأني لم استطع! ولم اكن اريد ان تعلم بالأمر! هل تظن انه أمر تفتخر امرأة بأن تعلن عنه، للرجل الذي...» وتوقفت فجأة عن الكلام، مرتعبة مما ستتفوه به، الرجل الذي تحبه... كانت قد لمحت سابقاً لروس بأنها تحبه! وبعجز التقطت نفساً، ثم التفتت بعيداً، واخذت تحدق في غرفة النوم التي بدت مظلمة بعد ان غربت الشمس.

«كاثلين انظري إليّ.» رفع ذقنها نحوه، وتابع: «ألم اوضح لك الأمر اكثر من مرة ان عليك ان تعلميني بكل شيء يحصل معك! حسناً، كنت أعني ان تخبريني بأي شيء وبكل شيء.» أرخى يده عن ذقنها وأبقى اصبعه يمرره برقة فوق خدها. ثم قال برقة: «كان علي ان اتفهم ذلك، وقد فهمت الآن.»

لقد اثارت لمسته ورقته احساس حنين مر حلو في قلب كاثلين. «اني سعيدة لأنك تتفهم وضعي يا روس، والآن اصبح واضحاً لديك لِمَ كنت أرفض الزواج منك.»

هز رأسه بذهول، وقال: «كلا، لم يتضح لي الأمر بعد، فكونك لا تنجبين أمر ليس من شأنه ان يقف عائقاً دون زواجك مني. يجب ان يكون حافزاً لك لتزداد رغبتك بالزواج مني... خاصة ان ستورمي هي الطفل الوحيد لديك.»

بدت مرهقة، ثم نهضت واخذت تتمشى في الغرفة، وفوق الطاولة عن يمينها، كانت قد وضعت إطاراً في داخله صورة مشتركة لها ولسام ونك، فأمسكت بها وأمعنت النظر فيها، لدقائق طويلة قبل ان تقول: «أنت لم تفكر بهذه يا روس.»

تقدم في الغرفة ثم وقف على مقربة من كتفها، وقال: «وانت تفكرين كثيراً.»

أدارت رأسها لتنظر إليه وتقول: «احياناً، يتوجب على الواحد منا ان يفكر، لقد سبق ان عانيت مرة من هذا الأمر يا روس. فغريغ كان يريد عائلة، ولم اكن اعرف لماذا... فهو لم يكن من نمط الرجال الذين يحترمون العائلة، ربما كان ذلك بسبب انانيته، لا اعرف والأهم هو انني لم استطع ان أنجب له طفلاً، لم يكن سعيداً بزواجنا، وكان يشعر بالغبن كما لم يكن راضياً عن زواجنا.»

شعرت به على مقربة حثيثة منها، وصدره قد لامس كتفيها، ويداه تعبثان بشعرها، كانت ستنفجر بالبكاء لهفة عليه.

«أرى انك ترغب في زواج شكلي فحسب، وماذا لو انك وقعت في حب امرأة وأردت ان تنجب اطفالاً منها؟ فهل تعلم أني حينها، سأشعر بعقدة ذنب حيال الأمر؟»

كيف عليه ان يقنعها بأن مخاوفها لا اساس لها؟ كيف عليه ان يخبرها بأنه لن يقع في حب امرأة أخرى مطلقاً، لأنه واقع في غرامها؟ وسيغرم بها لمدى الحياة؟ شعر انه لن يتمكن من اقناعها.

من المحتمل انها ستفكر بأنه يقوم بذلك ليطرد عنها مخاوفها، وان صدقته، فلا ريب انها ستبتعد عنه قدر ما تستطيع.

قال وهو يتمتم حيال هذا الوضع الميؤوس منه: «انك تستعجلين الأمور، بالاضافة إلى انه في حال حصول ذلك، يمكننا الانفصال، كما اوحيت اليك سابقاً.»

اندفعت نحوه، بوجه تجمد غضباً، وصرخت: «إنه لشيء رائع، أليس كذلك، تريد ان نمنح ستورمي والدين وندعها تعتاد على أم وأب، ثم تنفصل بعد ذلك وتشتت العائلة، كيف سأتمكن من شرح الأمر لها! وان اقول لها بأنها لم تكن تعني لنا شيئاً، وان والدها أراد ان يرحل عنا ليكوّن عائلة جديدة؟»

أراد روس ان يطلق شتيمة بكل جوارحه، لكنه بدل ان يستعجل الأمور، التقط نفساً عميقاً ليهدىء من روعه، ويقول: «لن يكون الأمر على هذه الصورة يا كاثلين.»

كانت تزرع خطواتها حوله، وهي ترتعش من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها. «روس! لن اناقش هذا الموضوع بعد الآن، في الحقيقة، افضل ألا أراك بعد اليوم!»

كان روس يتفرس بها وهو يتراجع بخطواته عنها إلى الوراء، وأحس بألم ينتابه، وكأنها غرزت في صدره خنجراً.

«وماذا بشأن ستورمي؟ هل ستمنعيني عن رؤيتها؟»

من على عتبة غرفة النوم، استدارت والتفتت اليه، فبدا لها وقد ارتسم الألم على وجهه، وأدركت انها كانت تسبب الأذى لهذا الرجل. وحقيقة، كانت تكره ان ترى ذلك. لكنها كانت تتصرف على هذا الشكل، لأنها كانت مغرمة به، كان عليها ان تذكر نفسها بذلك طوال الوقت، وإلا لكانت ذابت ألماً.

«لا، لن امنعك من رؤيتها، تراها ساعة تشاء، لكن ما بيننا قد انتهى، ولا تعد تذكر كلمة زواج امامي بعد اليوم!»

* * *

«حسناً، أيها التلاميذ، غداً سنناقش بنود القانون، من منكم يستطيع ان يسمي لي البنود العشرة الأوائل التي يتألف منها القانون؟»

واستدار روس عن اللوح فرأى أياد مرفوعة في الهواء، فأشار إلى فتاة شقراء تجلس في المقعد الأخير، فأجابت: «قانون حقوق الانسان، يا سيد دوغلاس.»

«صحيح، يا سينثيا.» ثم استدار إلى اللوح، وبدأ بالكتابة. «إذن واجبكم المنزلي للغد سيتلخص بأن تدونوا وصفاً مختصراً لكل بند يتألف منه قانون حقوق الانسان.» قرع الجرس وملأ الضجيج الغرفة، فيما كان التلامذة يتنادون ويندفعون باتجاه الباب.

وبينما كان روس يجمع كومة من الأوراق ليأخذها معه إلى المنزل، لاحظ ان احد التلامذة قد عاد إلى غرفة الصف. التفت إلى أعلى، فكان احد تلامذة صف التاريخ.

«هل نسيت شيئاً يا ماتيو؟»

فأجاب: «كلا، يا سيد دوغلاس.» ثم تقدم نحو روس، وتابع: «فقط أردت ان اسألك... حسناً، تسري شائعة في المدرسة، انك عندما كنت تلعب بايسبول في الكلية، عرض عليك اتحاد الفرق الرياضية عقداً.»

اطرق روس يفكر، على ما يظهر، ان ماتيو يرغب في الانضمام إلى فريقي الذي اقوم بتدريبه.

«لا أدري، اين سمعت الشائعة، لكنها صحيحة.»

«واو، لِمَ انقطعت عن اللعب؟ أعني أنت لست كبيراً في السن كي تكف عن اللعب.»

اجابه مبتسماً وهو يربت على كتفه: «كلا، لست كبيراً في السن، فقد أصبت في ركبتي، وهذا أمر حاسم بالنسبة لرياضي.»

قال ماتيو: «لذا استقلت.» بدا على وجهه القنوط، وكأنه احس بمدى بالألم الذي تخلفه الاصابة: «أظن ان التدريس قد يكون مضجراً بالنسبة لك بعد ان كنت تدرب في نادي الفرق الصغيرة.»

أجاب روس ضاحكاً: «انه ليس بأمر مضجر، اني استمتع بأن أرى صبياناً مثلك يفهمون ما يعنى بقانون حقوق الانسان.»

«هل ما تقوله صحيح؟»

أجاب: «انها الحقيقة.»

قال ماتيو: «لا بد انك تحب الأولاد.»

انه لم يمتهن التدريس لأنه لم يعد قادراً على تدريب البايسبول. لقد اختارها كمهنة ليكسب قوته منها، وكان يحب ان يعايش التلاميذ، محاولاً ان يفيدهم بشيء مميز في حياتهم، فهناك الكثيرون ممن ليس لديهم اهل لترعاهم، فهو هنا كي يرعى هؤلاء، لأنه يكره ان يرى تلاميذه مهملين ومنبوذين، كما كان الحال بالنسبة له.

وفيما بعد، وبعد دقائق قليلة غادر روس المبنى، وهو لايزال يفكر بتعليقات ماتيو، فكلماته جعلته يلاحظ كم هو يحب الأولاد، على الرغم من انه يقدس حريته.

على أية حال، فقد تبدل وضعه هذا كله، بعد ان وجد ستورمي في رواقه، وعلى الرغم من تخوفه من الزواج، إلا انه أراد ان يكون والداً لستورمي، وليس بمقدوره ان يكون والدألها إلا اذا تزوج من كاثلين وحاولا معاً حضانة الطفلة. لكنه رأى ان ذلك الشيء من الصعب ان يتحقق في الوقت الحاضر، فكاثلين غير مكترثة بأن ترى وجهه من جديد، حقيقة وعلى الأرجح قد تكون أكثر سعادة ان لم تره.

واخذ يفكر بقنوط لقد تركها وحيدة ليلة البارحة، وقد آلمه ان يكون بعيداً عنها، لكن الليلة سيذهب ليراها ويرى الطفلة، ولن يأتي على ذكر الزواج، لكنه سيلمح اليها بأنه لم ينسى الموضوع.

«يا روس؟»

ولدى سماع اسمه التفت روس، فرأى نك غالاغر يتقدم بسرعة نحوه.

«نك! كيف عرفت اني هنا؟»

«تذكرت انك كنت تحدث والدي عن المدرسة التي ستدرس فيها، هل أنت ذاهب إلى المنزل؟»

«هل من خطب؟ هل حدث أمر ما لكاثلين؟»

هز نك رأسه، لكن من وجهه المتجهم، استطاع ان يستنتج ان سوءاً قد حصل.

«ليس هناك ما يزعج، فهي لم تتعرض لحادث أو لأي شيء من هذا النوع، لكنها في حالة مزرية يا روس، كان عليها ان تسلمهم الطفلة اليوم، فقد قدم احد العاملين في المؤسسة المسؤولة عن رعاية الطفل، واخذ ستورمي إلى عائلة جديدة.»

شعر روس وكأنه تلقى ضربة فأس. «أين هي الآن؟»

«تعني كاثلين؟»

هز روس رأسه بقنوط.

«انها الآن في المزرعة، وتبدو حزينة، لم يدعها والدي تنزل بسيارتها إلى منزلها، ففكرت بأن تأتي انت إلى هناك وتراها، لعل هذا يساعدها.»

اندهش روس لطلب نك، وسأله: «لا اظن ان كاثلين ترغب برؤيتي، لم تطلب ان تراني، أليس كذلك؟»

قطب نك جبينه: «كلا، لكن الآن بالذات، كاثلين لا تدري ماذا عليها ان تقول أو تفعل، وكل ما تعرفه هو انهم اخذوا الطفلة منها.»

رفع روس وجهه، محاولاً التقاط انفاس عميقة ليسكن الألم الجاثم على صدره.

«انها غلطتي، انا قد تسببت لها بذلك.»

عقد نك ذراعيه فوق صدره: «تبدو وكأنك قد فقدت صوابك كما كاثلين، انها ليست غلطتك. فهي متعلقة بالطفلة إلى حد كبير، ألم تعلم بشأن... حسناً، كاثلين لا تستطيع ان تنجب اطفالاً.»

«اعرف، فقد اخبرتني.»

ابدى نك دهشته، واستطاع روس ان يرى الصدمة على وجه نك، كما أدرك ان كاثلين لم تسر لأحد عن عدم تمكنها من الانجاب، سوى لعائلتها.

كان روس منشغل التفكير، في حين تابع نك القول: «اذن بت تعرف لِمَ هي تتألم.»

«نعم، لا أرى اني استطيع فعل أي شيء حيال هذا

الموضوع، لقد حاولت... ما كان ينبغي عليّ ان آخذ الطفلة إلى منزل كاثلين تلك الليلة، كان عليّ اصطحابها إلى مكان ما في آخر المنحدر.»

أحاط نك كتف روس بذراعه، وقال: «لقد فعلت ما بوسعك من اجل الطفلة. لا تشعر بعقدة الذنب الآن، فقط تعال وتحدث إلى كاثلين.»

«لديها أنتم يا نك، أنت اهلها.»

«نعم، لديها نحن، لكنها بحاجة إليك.»

لم يشعر روس في حياته، ان أحداً كان يحتاجه.

ثم اجاب مذعناً: «أريد ان أراها.»

«حسناً.» وربت نك على كتفه تشجيعاً له، وقال: «إنها لم تعلم بأمر مجيئي إليك، وسوف لن اخبرها انك آتٍ، لكن أؤكد لك ان العائلة كلها ستتنفس الصعداء حين تراك.»

«ولِمَ ذلك؟»

أجاب نك ساخراً: «ألا ترى ان كاثلين مغرمة بك؟ جميعنا نعرف ذلك. كاثلين تحبك.»

الفصل الثاني عشر

«كاثلين تحبك، كاثلين تحبك.» وهو في طريقه إلى مزرعة غالاغر، كانت هذه الكلمات تدور في رأسه بشكل، لا يمكنه اسكاتها.

هل يعقل ان يكون نك على حق؟ هل تحبه كاثلين؟ كانت كاثلين قد رفضت الزواج منه، لم تكن تبدو له كامرأة مغرمة.

ولدى وصوله إلى المزرعة، استقبله نك على الباب وقاده عن طريق المطبخ إلى غرفة الجلوس.

كانت أوليفيا، أليسون، وإيلا يجلسن على كنبة يقلبون صفحات المجلات الخاصة بالعرائس، اما كاثلين فكانت جالسة على الأرض مع بنجامن، حيث كان يريها العينين الجديدتين اللتين خاطتهما إيلا على وجه الكلب الذي اهدته إياه كاثلين.

قالت له كاثلين: «اني واثقة ان بادي يستطيع ان يرى بهاتين العينين أرنباً على بعد ميل واحد من هنا.»

قهقه بن: «هل سيطارد الأرنب ويأكله؟»

ابتسمت كاثلين بكآبة: «بادي يطارد الأرانب فقط، ثم يعود إلى المنزل، ويأكل طعاماً خاصاً بالكلاب ساعة العشاء.»

قهقه بنجامن ثانية: «بادي لا يفعل ذلك يا كاثلين، لأنه لا يأكل طعام كلاب.» نادى نك بن بتحبب: «تعال إلى هنا يا بني، فلنذهب مع العم سام لاطعام الخراف.»

كان بن دائم الاستعداد للخروج مع نك، قفز من مكانه،

www.elromancia.com

وتبع نك إلى خارج الغرفة، ونهضت النسوة الثلاثة عن الكنبة، ثم نادتهم إيلا: «هيا يا بنات، اظن حان وقت تحضير العشاء، وزوجي يرغب بتناول الضلوع المشوية الليلة، وعلينا طهو القليل من صلصة الشواء.»

بالكاد لاحظ روس النسوة وهن يخرجن من الغرفة بهدوء، إذ كان يمعن النظر بكاثلين التي كانت لاتزال على الأرض تحدق به أيضاً.

اقترب منها، ولاحظ انها كانت تبكي بكاءً متواصلاً مراً، فقد انتفخ وجهها وعيناها، وبدا شعرها اشعث كما بدت حزينة جداً وأيضاً جميلة جداً، وسألته: «ماذا تفعل هنا؟»

أجابها بهدوء: «سمعت بشأن ستورمي.»

ابعدت نظرها عنه، ورأى روس انها كانت تحاول جاهدة ان تداري الدموع في عينيها: «لم تكن ملزماً بالمجيء، فلن تستطيع فعل شيء.»

بدا صوتها فاتراً، وكأن كل ما فيها كان قد توقف عن الحياة.

لاحظ روس انها لم تكن تريد رؤيته، فكل ما كان يشغلها هو ان تستعيد الطفلة، كانت الحقيقة مرة، قد يفهم نك عاطفة أليسون تجاهه، لكنه لا يستطيع تفهم شعور شقيقته، فهي لا تحب روس، كان يأمل إلى حد الجنون ان تغرم به.

ووصل إلى حد الجنون في تفكيره، حتى انه كان مستعداً لينافس كلاً من ستورمي وعائلة غالاغر في حبهم لكاثلين.

«لم ينته الأمر يا كاثلين، فلم يأخذها أحد بعد، فقط وضعوها في دار للايتام.» ثم جلس بالقرب منها، محاولاً مواساتها.

نظرت إليه، وقد بدا وجهها متغضناً، والدموع تملأ عينيها، ثم قالت باكية: «لقد اخذوها يا روس، وكأنها لم تكن. اخذوا طفلتنا! كانت ملكي وملكك انت، وليس ملكهم، هي من حقنا!»

جذبها روس اليه وضمها بين ذراعيه بقوة وهو يقول: «اعرف يا كاثلين، ان ذلك يؤلمني أيضاً.» قال ذلك وقد بدا صوته غليظاً مليئاً بالعاطفة.

كانت تلهث باكية وهي تدفن رأسها في ثنايا قميصه وتتشبث به بيأس.

بقي روس لهنيهات طويلة، يداعب شعرها، ويربت على ظهرها، كي تهدأ الدموع في عينيها، فهو لم يحتمل رؤيتها وهي تتألم على هذا الشكل، وعلى الرغم من انه لم يحسب انه سيغرم بأية امرأة، فقد احب كاثلين اكثر من نفسه.

اخيراً، اندفعت مبتعدة عنه، ومسحت عينيها بباطن كفيها، إذ لم تسمح لنفسها بأن تبدو منهارة امام روس، لكن حين التفتت نحوه ورأته ازدادت تأثراً لأنه اصبح جزءاً من حياتها، كما تحركت في داخلها ذكريات تلك الليلة الأولى حين قدم روس إلى منزلها وبين ذراعيه ستورمي، فقد كان متجمداً من الصقيع وغطاه الثلج. لكن كان تفكيره واهتمامه منصبين على الطفلة، وقد احبته لأجل ذلك، واليوم هناك اسباب أخرى جعلتها تحبه.

كانت تحس وكأن قلبها انفطر، ليس لأنها ستتخلى عن الطفلة، لكن أيضاً لأنها ستتخلى عنه، فهو رجل من حقه ان ينجب اطفالاً، وبما انها لا تستطيع ان تمنحه طفلاً، أرادته ان يبقى حراً في اختياره امرأة تنجب. ثم قالت: «اني

آسفة.» ثم نهضت من مكانها وبدأت ترفع شعرها المشعث عن وجهها.

تابعت كلامها: «لم أكن أريد ان انفعل، اعتقد انك تعرف... اني اضعف امرأة قابلتها.»

«لا اعتقد انك ضعيفة، اظن انك انسانية وحسب.»

أحست بغصة في حلقها، ثم استدارت وتقدمت نحو الموقد.

«نعم حسناً، اني الآن لا أحس بانسانيتي، اشعر فقط بأني ميتة من الداخل.»

هز روس رأسه ببطء، لدى سماعه تعبيرها المنهزم. «كاثلين يجب ألا تستسلمي الآن، لا تحسبي ان الموضوع قد انتهى، وانهم اخذوها مني ولن استطيع ان استعيدها، علينا ان نكافح كي ترجع الينا، فأمها الحقيقية أرادتك انت ان تحصلي عليها، ربما هناك من وسيلة تجعل الأم تتنازل عنها لك.»

اومأت كاثلين برأسها نافية: «لا اظن ذلك، المرأة صغيرة السن، وان لم تكن كذلك، فاني متأكدة، انه يتوجب عليّ ان استمر بإجراءات الحضانة كي احصل عليها.»

أجابها بحزم: «سوف نحصل عليها.»

«وكيف تعتزم القيام بذلك يا روس؟ لا تتصور كم هناك من ازواج، اسماؤهم مدونة على لائحة الانتظار، وهم ينتظرون بفارغ الصبر كي تظهر مولودة مثل ستورمي، وسيكون اسمي الأخير على جدول لائحة الانتظار.»

وبعزم لا يلين، اندفع روس اليها وأمسك بذراعها.

«نحن أول من حصل على ستورمي، ونحن قد انقذناها

من العاصفة الجليدية، ويجب ان يحسب لكل هذا حساب. سنتحدث إلى محاميك ونعلمه بأمر زواجنا، وسنريه ونري دائرة رعاية الاطفال كم نحن نريدها!»

«حدا بها غضبها لأن تفلت ذراعها من قبضته.

«لقد قلت لك مراراً لا تذكر تلك الكلمة امامي ثانية! كيف تفعل ذلك... تذكرني بها الآن؟ ماذا تحاول ان تفعل؟ ان تشتتني كلياً!»

كان واضحاً، انه اثار غيظها، لكن روس لم يكترث للأمر، فالغضب افضل بكثير من الدموع، والآن حان الوقت لأن ترى الأمور على حقيقتها، قبل ان يصبح الوقت متأخراً، فلا يعود بامكانها فعل أي شيء.

«دائماً، تلحين عليّ بأنك تريدين الطفلة إلى حد كبير لِمَ لا تقدمي البرهان على ذلك؟ لِمَ لا تكفين عن محاولة الاختباء خلف اعذار وتبرهنين كم انت تريدينها!»

حركت كاثلين شفتيها لتحتج: «ليس عليّ ان ابرهن شيئاً!» واخذت تدمدم وعيناها تقدحان ناراً: «ثم اني لا اختبىء وراء اعذاري!»

«نعم، انك تفعلين! لديك شتى الاسباب والأعذار كي لا تتزوجي مني. لكن كلانا يعرف ان هذه الأعذار هي ليست السبب الحقيقي لتحاربيني بها!»

فجأة هدأ كل ما في داخلها تماماً، هل يدري؟ هل يدري اني احبه؟ اشاحت بنظرها عنه وأخذت تحدّق في النار المشتعلة، ثم سألته: «ماذا تقول؟»

«أقول انك لا تريدين الزواج مني لأنك جزعة جداً.»

«لست جزعة! اني...»

اطبق بيديه حول كتفيها، ما كان منها إلا ان التفتت ونظرت اليه: «لا تكذبي عليّ يا كاثلين، ان خوفك من الحياة يفوق خوفك من ان تخسري ستورمي.»

«هذا ليس بصحيح!» اخذت تبكي وكان وجسدها بكامله يرتجف.

دفع به يأسه لأن يضغط باصابعه على كتفيها، ويقول: «إنها الحقيقة يا كاثلين، عندما تنظرين إليّ وإلى ستورمي، فانك لا تفكرين إلا بزوجك وبالطفل الذي لم تنجبيه. انت في الحقيقة لا تفكرين بي أو بها، أو بما قد يكون افضل لنا! انت تفكرين بنفسك!»

فجأة تحجرت عيناها الخضراوان: «أنت... أنت سافل قاس.» وقبل ان يتدارك ما كان يفعل، ضمها بين ذراعيه، وكانت ضمته قد ازالت الغضب الجاثم على صدرها.

ابتعد عنها وقال: «إلى اللقاء يا كاثلين، عندما تقررين ما تريدينه بالفعل، تعرفين اين تجدينني.»

كانت كاثلين تراقبه وهو يغادر، وكانت كاثلين تتساءل متى سيهمد ذلك الحنين في قلبها، وكم سيستغرق من الوقت كي تنساه.

• • •

«كاثلين، ما رأيك بهذا الفستان؟»

نظرت كاثلين إلى الفستان الزهري الذي كانت اوليفيا قد وضعته على اليسون، وكانت تحاول ان تبدي اهتمامها بالأمر قدر الامكان: «انه فستان عرس خلاب.»

وبتجهم، اقتربت اوليفيا من كاثلين وقالت: «حسناً، لقد

اتيت إلى هنا كي تساعدينا، إذن عليك ان تفعلي، لا ان تجلسي هناك منقبضة الصدر.»

«لست منقبضة الصدر.» ودار شجار بين كاثلين وزوجة أخيها.

«تبدو كئيبة، أليس كذلك يا أليسون؟»

«أخشى انك كذلك، يا كاثلين فانت لم تتفوهي سوى بثلاث عبارات منذ وصلنا إلى مخزن العرائس.»

اومأت اوليفيا برأسها: «ظننت انك متحمسة لعرس نك وأليسون.»

«اني كذلك، لا يمكنني ان اكون اكثر حماسة، فاليسون تعلم ذلك.»

«حسناً.» قالت أوليفيا، وهي تمد يديها في الهواء: «إذن تصرفي على هذا النحو. تذكري العرس يصادف يوم عيد الحب، ولم يعد لدينا سوى وقت قصير لنجهز كل شيء، علينا ان نجد الفستان اللائق، فستاناً يذهل نك لحظة يراه على أليسون، يجب ان نقسو كثيراً، فنك لازال يحلم.»

قالت كاثلين: «حسناً، حسناً، ساحاول ان اكون اكثر حماسة، ان كان هذا يرضيكما.» من ثم ضحكت ضحكة عريضة، وتابعت: «هل أبدو بحال افضل؟»

أجابتها أوليفيا: «ستبدين بحال افضل، لو انك تصرفت على سجيتك.» خلعت أليسون الفستان الزهري اللون وهي تتنهد.

«من الأفضل لي ان ارتدي الفستان الذي اشتراه لي نك وارتديته في حفلة زواجك يا أوليفيا.»

بدت كاثلين مكتئبة، كانت تحب اليسون وتتمنى لها عرساً

رائعاً، لكنها كانت تجد صعوبة في ان تظهر مشرقة، لقد بدت في وضع سيء، قالت لهما: «لا تكوني سخيفة، انت تستحقين فستان عرس انيق.» ثم تقدمت من أليسون وضمتها بين ذراعيها. «لا تهتمي كثيراً لمزاجيتي يا أليسون.»

وضعت أليسون يدها على خد كاثلين، وأجابت: «نحن نتمنى سعادتك فحسب.»

«نعم اعرف وسأكون سعيدة، فقط امنحوني بعض الوقت، هذا كل ما احتاج إليه، والآن سأخرج لاتفرج على واجهة العرض، كي اختار لك فستاناً آخر تجربينه.» في اللحظة التي غادرت فيها كاثلين غرفة استبدال الملابس، بدأت اوليفيا واليسون تتبادلان نظرات يشوبها القلق.

قالت اوليفيا: «علينا ان نفعل شيئاً حيال هذا الأمر.»

وافقتها أليسون قائلة: «أنت على صواب، لكن ما الحل؟»

واخيراً، استقر رأي النسوة الثلاث على فستان عرس عاجي اللون، ومزركش من الطراز القديم، ذي ياقة عالية. بدا الفستان لائقاً جداً على أليسون، وانعكس لونه على شعرها الأحمر، فازدادت جمالاً.

سرت النساء الثلاث لاختيارهن فستاناً جميلاً، وقرروا ان يتناولوا طعام الغداء في مطعم قريب، يقدم مأكل مكسيكية شهية.

قالت أليسون: «لقد اشتقت إلى نك، اذ كان عليه ان يعود إلى فورت سيتل.» جلست الشابات الثلاث إلى طاولة قريبة من النافذة، وبدأن بتناول رقائق التورتيلا مع الصلصة، وهن ينتظرن الطبق الأساسي.

اجابت اوليفيا: «اعلم انك ستفتقدين له، لكنه سينتقل إلى مركز عمله في فورت شافي الأسبوع القادم، وعودته إلى المنزل، تستأهل منك الانتظار.»

وافقتها أليسون الرأي، ضاحكة: «لقد فرحت الجدة لأجلي، حين علمت اننا سنسكن هنا، واعتقد انها افتقدت لنك اكثر من افتقادي له.»

اضافت كاثلين: «جميعنا مسرورون لأنك ونك ستعيشان في مكان قريب منا.»

اجابت اوليفيا: «خصوصاً سام، فهو لا يقر بذلك، لكنني احسب ان نك يفتقد سام كثيراً عندما يكون غائباً.» ثم حدقت بكاثلين. «وهو أيضاً يتساءل كيف أن روس لم يظهر مؤخراً، فهو يرغب بمجيء روس للعشاء ذات ليلة.»

خفق قلب كاثلين بسرعة لدى سماعها اسم روس، لكنها التفتت إلى زوجة أخيها ورفعت كتفيها بلا مبالاة.

«اني متأكدة انه سيأتي ان انت اتصلت به.»

«في حال مجيئه، انذريني فقط كي لا اكون معكم.»

اطلقت اوليفيا صوتاً ساخراً: «كاثلين لقد تعبت من التظاهر امامك بالحذر وكذلك هو الحال بالنسبة لأليسون ولبقية العائلة، نعلم انك مستاءة بسبب ستورمي! لكن ما شأن روس؟ نريد ان نعرف ما حصل بينكما؟»

«لم يحصل أي شيء.» اجابتها كاثلين بذلك وهي تحاول ألا تنظر إليهما، ثم تابعت: «الآن وقد رحلت ستورمي، لم يبق هناك سبب لبقائنا سوياً.»

رمقت اوليفيا أليسون قبل ان توجه انتباهها لكاثلين. «كيف يمكنك قول ذلك؟»

قالت باختصار: «لأن تلك هي الحقيقة.»

«قال سام بأن روس طلب منك الزواج.»

بدأت يد كاثلين ترتجف وهي تمدها لتتناول كوب ماء، وقالت: «سام كثير الكلام.»

أجابت اوليفيا ساخرة: «سام، كثير الكلام؟»

أجابت كاثلين: «حسناً، اعني فيما يتعلق بموضوعي، لم يكن حرياً به ان يخبركم عن الموضوع.»

تنهدت اوليفيا بامتعاض، ثم قالت اليسون: «كنا نظن انك مغرمة بروس، والآن يبدو انك لا ترغبين حتى برؤيته.»

«أنت على حق، لا اريد ان أراه، عندما...» كان عليها ان تتوقف عن الكلام، لم تستطع اخبارهما انها كلما وجدت في نفس الغرفة مع روس كانت تحس كأنها ستنفطر ألماً، كانت تحث نفسها على متابعة حديثها، وهي تمد يدها لتتناول رقاقة تورتيلا: «صدقاني، عندما اقول انه من الأفضل لي ولروس بألا نتقابل.»

سألتها أوليفيا: «اذن، روس لا يهمك؟ كنت تقضين وقتك معه من اجل الطفلة.»

«كلا... أنا...» وعلا وجهها انزعاج ثم حدقت بالمرأتين: «ليس عليّ ان اشرح لكما شعوري نحو روس.»

وافقتها اوليفيا الرأي: «كلا، لست مضطرة لذلك.»

قالت أليسون: «لكننا نهتم لأمرك، ونحن نعلم، حسناً... تذكرين كم كنت مرتبكة وخائفة عندما طلب نك الزواج مني، وقد أوعزت إليّ حينها بأنه يعوزني رؤية الأشياء بوضوح.»

قالت اوليفيا: «وأنا متأكدة من انك لم تنسي كم كنت

يائسة عندما كنت احاول قطع علاقتي بسام، لكن على الرغم من خيبتي في استمرار العلاقة، فقد بقيت تحثينني على الاستمرار بعلاقتي به.»

أجابت كاثلين مكتئبة: «اي شخص كان عليه ان يفعل ذلك، فقد كنت تائهة وكذلك كان الأمر بالنسبة لأليسون.»

بعد ان فشلت من وضع حد لاسئلتهما، انحنت كاثلين فوق الطاولة قبالة السيدتين، وبدأت تتحدث بصوت هادىء لكن جاد: «كلاكما تريدان معرفة حقيقة شعوري تجاه روس؟ احبه حباً جماً، واني يائسة من دونه، لكن هذا أمر عليّ ان اعتاد عليه.»

هزت أليسون رأسها ممتعضة، في حين اطلقت أوليفيا نفساً عميقاً، لاحساسها بخيبة أمل.

سألتها أوليفيا: «لماذا؟»

حاولت كاثلين التغاضي عن الألم الذي كان يعصر في صدرها، لكن دون جدوى، لأن ذلك بان في صوتها وهي تقول: «روس لا يحبني، حتى لو كان يحبني، فلن أتزوجه.»

«كلام مقنع!» علقت اوليفيا ساخرة: «قد يسعدك الزواج منه، لكن لا نستطيع ان نحظى بذلك. فقد يخرب عليك خططك للاستمرار بخيبة الأمل لبقية ايام حياتك!»

كانت كاثلين تحدّق بحركة السير في الخارج من خلال النافذة الزجاجية. «كلاكما تعتقدان ان الأمر بغاية البساطة... واحسب انه يبدو كذلك لكما، فلكل منكما رجل يحبها.»

سألتها اليسون: «كيف تعرفين ان روس لا يحبك؟ هل سألته؟»

«كلا، ولن اسأله، المسألة لا تقتصر على سؤالي أو عدم سؤالي له.»

كان الاندهاش بادياً على وجه كل من اوليفيا و أليسون، ثم كررت اوليفيا القول: «المسألة ليست مسألة حب؟ هيا يا كاثلين، لطالما كان الحب اساس كل المسائل. لا تحاولي ان تقولي العكس.»

«حسناً.» وأدركت ان هاتين السيدتين لن يقطعا حديثهما ما لم تفضي اليهما بسرها. «اني احب روس لدرجة اني لا... اريد الزواج منه. انتما تفهمان اني لا استطيع الانجاب. فكيف يمكنني ان اتزوجه؟ انه شاب، كيف يمكنني ان احرمه من فرصته في بناء عائلة؟»

مدت أوليفيا يدها من فوق الطاولة ولمست يد كاثلين: «ربما روس لا يرغب بسواك.»

فجأة، غصت كاثلين واغرورقت عيناها بالدموع ولم تستطع الكلام بعد هنيهة قالت اوليفيا: «تعلمين انه عندما طلبني سام للزواج، لم يسألني ان كنت قادرة على الانجاب أم لا. فالنساء حقيقة، لا يعرفن ان كانوا سينجبون إلا متى حاولوا ذلك، وإذا ما احب رجل امرأة، فقد لا يعنيه ذلك البته.»

وافقتها أليسون الرأي: «أعلم ان لدي بنجامن، وفي حالتي، قد لا يختلف الأمر كثيراً، ومع ذلك فنك لم يسألني ان كنت سأنجب المزيد من الاطفال. كل ما اعرفه، هو انه كان سيتزوجني حتى لو علم أني عاقر.»

وقبل ان يقال المزيد، تقدمت نحوهم المضيفة وهي تحمل وجبة الطعام. ثم بدأن بتناول الطعام، وفي نهاية

الأمر، تحول حديثهن إلى التحضيرات الخاصة بعرس اليسون ونك.

تنفست كاثلين الصعداء، لكنها كانت متضايقة مما ذكرته اوليفيا واليسون حول موضوع الحب والأولاد.

ربما كانت ترغب وتتوقع ان تكون الاشياء على اتم ما يمكن، ربما لو انها وافقت على الزواج من روس، قد يغرم في النهاية بها، ولا يكترث لشيء، سوى ان يكونا معاً، وما كانت تفكر به، كان أمراً اكبر مما يتوق إليه قلبها المتعب.

www.elromancia.com

الفصل الثالث عشر

في اليوم التالي كان يتساقط رذاذ مطر بارد، وبدا الطقس كئيباً كمزاج روس، لكنه لم يدعه يؤثر على نشاطه لتدريب البايسبول، وعلى أرض الملعب الرياضي، طلب روس من الصبية ان يقوموا بحركات جمبازية روتينية، ليكتسبوا لياقة بدنية قبل حلول فصل الربيع، حيث يمكنهم التدرب في الحقل.

ناداه أحد صبيان المجموعة: «لِمَ لا يمكننا لعب لعبة الـ كات، ايها المدرب؟»

هز روس رأسه: «لن تلعبوا البايسبول أو الـ كات، قبل اسبوع آخر على الأقل، فالفريق الذي سيفوز ببطولة الولاية لهذه السنة سيكون الفريق الأقوى، واعتقد ان فريقكم سيفوز.» واضاف قائلاً: «قوموا بعشرة دورات حول الملعب، ثم عليكم الصعود إلى نهاية المدرج وبعد ذلك النزول منه.

وبينما كان روس يراقب مجموعته في صعودها إلى آخر المدرج، لاحظ شكلاً مألوفاً لديه واقفاً عند طرف الساحة، وانشغل فكره بشتى الأفكار بينما كان مهرولاً باتجاهه.

«مرحباً يا روس.»

مد روس يده مصافحاً سام بحرارة، وهو يقول: «سررت لرؤيتك، ما الذي أتى بك إلى المدرسة؟ لا بد انك صممت على لعب البايسبول.»

ضحك سام، قائلاً: «لن يسعني لعب البايسبول، ان كان عليّ ان اقوم بكل هذه التمارين.» قال ذلك وهو يومىء إلى مجموعة الصبية التي كانت تهرول مرهقة حول الملعب الرياضي.

ضحك روس، وأجابه: «وهم أيضاً لا يحبون التدرب.»

وما لبث ان ارتسم تعبير صارم على وجه سام، فأيقن روس ان الرجل لم يأت اليه ليمازحه.

وقال: «لن اضيع وقتك يا روس، مررت فقط لأسألك عن عدم مجيئك إلى المزرعة في الأسبوع الماضي، جميعنا افتقدناك.»

فكر روس متأسفاً: جميعهم باستثناء كاثلين.

لكنه قال: «كنت قد انشغلت بالوظيفة الجديدة.»

أجاب سام عابساً: «أريد ان ادخل في صلب الموضوع، واطلب منك الشيء نفسه.»

سأله روس قبل ان يتابع حديثه:

«هل عرفت كاثلين شيئاً عن موضوع الطفلة؟»

«كلا، لا اظن.»

«إذن... كيف حالها الآن؟ اعني كاثلين.»

نظر سام إليه وهو يفكر: «انها يائسة، لذا أتيت، أردت ان اعرف حقيقة شعورك تجاه شقيقتي.»

• • •

«سام، لست قادمة إلى المزرعة الليلة، انسى الأمر.» قالت له كاثلين ذلك عبر الهاتف.

وتابعت: «كل ما أريده هو ان اتمدد امام التلفاز، وآكل السلطة.»

«أنت لا تشاهدين التلفاز مطلقاً.»

قالت كاذبة: «سأشاهده الليلة.»

«يا كاثلين، انت تفقدينني صوابي.»

أجابته: «لا تفكر بي واستمتع بوقتك.» ثم اقفلت الهاتف قبل ان تدعه يتفوه بأية كلمة أخرى.

كانت كاثلين تحب عادة، قضاء وقتها بين أهلها، لكن الأسبوع الماضي كانت قد أحست بانزعاج منهم، ولاحظت فيما بعد انهم يتصرفون على هذا النمط من باب محبتهم لها، لكن ما لم يدركوه، ان وجودها معهم سيزيد من حزنها، فسام لديه أوليفيا، ونك لديه أليسون، وأمها لديها والدها، وكاثلين كانت وحيدة. واخذت تفكر حزينة، قد يكون ذلك خطأها، وقد يكون ما قاله روس صحيحاً، من الأرجح انها لاتزال تعيش الماضي، ومتخوفة من مواجهة المستقبل.

كل ليلة من الأسبوع الماضي، كانت تقف كاثلين عند زجاج نافذة غرفة نومها، تحدّق في الأحراج باتجاه الأنوار المنبعثة من منزل روس، وكانت تتساءل عما يفعل روس وكيف ستكون ردة فعله لو انها ظهرت على عتبة بابه.

وهي الليلة تحدّق في ذلك المنزل من جديد، والحنين الذي في قلبها يزيدها يأساً، في البداية كانت تشعر باضطراب لأنها ستفقد ستورمي، لدرجة انها لم تلاحظ مدى حبها لروس، اما اليوم وبعد مضي اسبوع على فراقه، أدركت انه يعني لها اكثر من أي شيء آخر.

دفعها هذا التفكير إلى أن تترك النافذة، وتتناول سترتها

الصوفية ثم فكرت بحدة: عشية العيد، بعدما تعرفت إلى روس كانت قد صممت على نسيان ماضيها المؤلم. واليوم قد حان الوقت كي تواجه ذلك القرار.

لم يكن روس من نوع الرجال الذين يتأثرون بسرعة، لكن الليلة، وهو يعد نفسه للذهاب إلى العشاء في مزرعة عائلة غالاغر، كان كلما فكر بكاثلين، يحس بألم في معدته.

كان كله أمل بأن يكون الأسبوع الماضي كافياً لها لتدرك انهما خلقا لبعض، لكن كاثلين لم تخطو خطوة باتجاهه، بأن تتصل هاتفياً أو تقوم بزيارة له، والآن طلب اليه سام ان يذهب ليقابلها، لم يكن واثقاً انه يقوم بالشيء الصواب، لكنه كان متلهفاً كي يقنعها بأنه يريدها أن تكون جزءاً من حياته.

كان ينتعل حذاءه، حين سمع طرقاً على الباب، فتساءل عمن يكون القادم في مثل هذه الساعة.

عندما فتح الباب ووجد كاثلين في الرواق، حدّق بها منذهلاً. «كاثلين!»

لقد بدت حنجرتها متورمة الأعصاب، وكان عليها ان تبتلع لعابها، قبل ان تتكلم: «مرحباً يا روس هل تأذن لي بالدخول؟»

فتح الباب على مصراعيه كي تدخل.

«كان عليّ ان اخابرك قبل مجيئي، هل هاتفك يعمل الآن؟»

نظرت من حولها في الغرفة المرتبة، ثم التفتت إليه، وكان يرتدي بنطلوناً من الجينز، وقميصاً أبيض، لم يزرره بعد وقال لها: «نعم، انه يعمل الآن لقد اصلحوه البارحة.» ثم أغلق الباب وراءه بحذر.

تقدمت كاثلين إلى وسط الغرفة، ثم وقفت قبالته، بدا وكأنه قد خرج من الحمام لتوه، فشعره لم يزل رطباً، كما استطاعت ان تشم رائحة كولونيا ما بعد الحلاقة، تفوح منه.

بدأ يزرر قميصه، في حين بدأ قلب كاثلين يخفق بسرعة، وهي تقول: «أنا، آه.. هل كنت خارجاً؟ لا اريد ان اؤخرك.»

علم من سؤالها انها لم تكن تعلم بأمر ذهابه للعشاء في المزرعة. ولم يبدُ عليها انها مصممة على الذهاب إلى هناك، إذ كانت ترتدي جينزاً قديماً وسترة صوفية وحذاءً بالياً. وكان شعرها مربوطاً من الخلف ووجهها خالياً من الزينة.

في تلك اللحظة، بدت له اجمل من أي وقت مضى.

ثم قال لها مؤكداً: «انك لا تؤخرينني عن الخروج.»

قالت: «اظن اني بعد ان قابلتك في المزرعة...» ولم تستطع ان تتابع حديثها، فتوقفت عن الكلام وأخذت نفساً عميقاً... قبل ان تتابع: «لقد اشتقت اليك.»

اخذ روس يمعن النظر فيها، متخوفاً ان تكون قد تبدلت مشاعرها نحوه، وقال: «وانا اشتقت أيضاً إليك.»

ثم نظرت اليه، متسائلة بلهفة: «لِمَ لم تأتِ لزيارتي؟ اخبرني؟»

«لأنك قلت لي انك لا تودين رؤيتي ثانية، اتذكرين؟»

تنهدت، وهي تتذكر يوم ان فقدت ستورمي، وفيما بعد حين تناقشت بحدة مع روس حول أمر الزواج، فهي لازالت منذ ذلك الوقت حزينة.

«نعم، انكر، لكن كنت آمل انك ستدرك اني لم اكن جادة في ما اقول.»

بقي يحدّق فيها، وهو يجيب بدهشة: «ان لم تكوني جادة في ما تعنيه، لِمَ تفوهت به إذن؟»

رفعت يديها بوهن ثم أرختهما على جانبيها، وقالت: «لأني كنت يائسة، كما كنت خائفة كما قلت.» ثم نظرت في وجهه، وفيما كانت عيناها تتفحصان وجهه الغالي، لم تستطع لجم مشاعرها اكثر من ذلك. فاعترفت قائلة: «كنت خائفة ان أبوح لك بالحقيقة.»

مد اصابع يده، واخذ يتحسس بها وجهها، وسألها: «وما هي الحقيقة يا كاثلين؟»

«اني احبك.»

كان روس يتمنى من كل قلبه كي يسمع منها هذه الكلمات، لكنه لم يتوقع ذلك بهذه السرعة، والآن وقد سمعها، فقد أصيب بالذهول.

خافت كاثلين أن ترى علامات الرفض على وجهه، فتراجعت بعيداً عنه، وهمست: «الآن، اصبحت تعلم لِمَ كنت اهاجمك على هذا الشكل.»

وضع يديه على كتفيها، وقال منذهلاً: «كلا، لا اعرف السبب، ان كنت تحبينني...»

أدارت رأسها لتنظر إليه. ثم اعترفت: «عندما لاحظت مدى شعوري نحوك، أدركت اني لا استطيع ان اوافق على زواج شكلي... وان كان ذلك هو ما ترغب به، فأنا...»

شد بأصابعه على كتفيها، ثم هزها قليلاً. «كاثلين، كنت

قد عرضت عليك زواجاً شكلياً لأنني تصورته الوسيلة الوحيدة التي تجعلك توافقين.»

اومأت برأسها وكأنها لم تصدق ما كان يقول: «لكنك قلت... يا روس، في أول ليلة تقابلنا فيها، ان الحياة العائلية لا تناسبك.»

قال مذكراً إياها: «وأنت اخبرتني بنفس الشيء...»

«أعرف، لكني بدلت رأيي فيما بعد.»

أجاب: «وانا أيضاً.» ثم جذبها إلى ذراعيه، وتابع: «في اللحظة التي أدركت ذلك فيها، احببتك.»

وفيما كانت كاثلين متشبثة به، كانت تحاول ان تستوعب ما يقوله لها: «هل تحبني؟»

«أحبك أكثر من أي شخص صادفته في حياتي.»

«ظننت انك تريد الزواج مني لأجل ستورمي.»

ضمها بقوة بين ذراعيه، وضغط بحدة على جبينها، وأجاب: «أريد الزواج منك لأجل ستورمي، ولأني اريدك ان تكوني زوجتي... زوجتي الحقيقية... زوجة استطيع ضمها بين ذراعي، واقضي بقية حياتي معها لكني كنت متخوفاً من الاعتراف لك بذلك، يا كاثلين، في الحقيقة لم يتسن لي ان اعيش ضمن عائلة من قبل. عندما انفصل والدي عن والدتي تخليا معاً عني، لذا عاهدت نفسي على ألا اقدم على الزواج واتسبب لنفسي ولطفل بريء بالأذى.»

رفعت كاثلين رأسها عن صدره، غير انه كان لايزال يحدّق فيها، فوجد انه لا يزال هناك ريبة في عينيها.

«اتفهم ذلك يا روس، لكن... الأمور تسير بسرعة، فنحن لم نتعرف على بعض منذ مدة طويلة.»

«لا يلزمني المزيد من الوقت كي اعرف حقيقة شعوري نحوك يا كاثلين، فقد امضيت الأسبوع الماضي من دونك، وانا في حالة يرثى لها، لا تقولي لي بأننا لا نليق لبعضنا.»

رفعت يديها الاثنتين واحاطت بهما وجهه، ثم قالت: «اني خائفة ان اخيب ظنك إذ لا املك سوى شخصي اقدمه إليك.»

«كاثلين، منذ اخبرتني انك لا تنجبين، وانا اريد ان اسألك، كيف تأكدت من الأمر؟ هل اشار عليك طبيب بان لا أمل لك بالإنجاب؟»

أجابت: «لم ير الأطباء سبباً لعدم انجابي، لكن كوني لم انجب، افترضت ان يكون هناك خطأ ما.»

وافقها روس القول: «وهل كان هناك من عائق بالنسبة لزوجك، هل أجرى فحصاً؟»

عبست كاثلين: «كلا، لم يوافق على إجراء فحص الخطوبة، اظن انه كان أمراً يتعلق بأنانيته.»

فجأة لمعت عينا روس بنور الأمل. «ان كان زوجك لم يجر فحصاً مخبرياً، واظهر فحصك انك على مايرام، إذن من سيجزم ان الأمر بيني وبينك سيختلف؟ قد نستطيع انجاب طفل معاً.»

قبضت على يديه الاثنتين، خائفة ان تصدق ان ما يقوله قد يكون حقيقة. وقالت: «هل حقاً تعتقد ان هناك أملاً في ان تكون المشكلة من طرف غريغ؟»

«اظن ان هناك اكثر من فرصة لمعرفة ذلك.»

اخذت تتفحص وجهه، وهي تقول: «قد يكون الأمر كذلك، يا روس لكن افترض انه لم يتحقق؟ افرض اني لم انجب طفلاً لك؟ انت من حقك ان تكون والداً.»

«وأنت ايضاً تستحقين ان تنجبي اطفالاً.» قال ذلك، وهو يجذبها نحوه، ويتابع: «وان نحن تدبرنا أمر حضانة ستورمي، سيكون لدينا طفلة، وسيبدو ذلك رائعاً، وان لم نحظَ بطفل، سأكون أنا لك، وأنت لي، وهذا في الحقيقة كل ما يهمني يا حبيبتي كاثلين، وسوف نتشارك أنت وأنا بقية أيام حياتنا مع بعضنا البعض.»

اغرورقت عيناها بدموع الفرح، وهي تقول: «لقد حاولت اوليفيا واليسون ان تخبراني بأن شعورك سيكون على هذا النحو. وكنت خائفة ان اصدقهما.»

لأول مرة منذ ان دخلت كاثلين منزله، بدا مبتسماً، وقال: «أرى اني سأحظى بزوجة رائعة.»

ردت كاثلين له الابتسامة بالمثل، وقد بدا على محياها حب بريء. «وأنا سأحظى بزوج رائع لبقية أيام حياتي.»

ثم قال وهو ينحني بجبينه على جبينها: «قد لا تكون ستورمي معنا الآن، لكنها قد جمعتنا معاً، واني اشكرها على ذلك.»

همست: «آه، يا روس...»

فجأة، لمعت في الغرفة اضواء، تحذرهم ان احدهم قادم بسيارته.

قال وهو يضحك: «أرى ان أوليفيا وأليسون قد ارسلتا متطوعين وراءنا، انه سام!»

انفجرت كاثلين قائلة: «سام! لا بد انه اسرع بالمجيء ورائي، لاني قطعت مكالمته، ارادني ان اذهب للعشاء في المزرعة والآن...»

نظرت اليه بدهشة وتابعت: «كنت ذاهباً إلى المزرعة

الليلة؟» بسرعة تقدم نحوها وطوقها بذراعيه قائلاً: «سام طلب مني أن أذهب ولم استطع رفض طلبه، لأني احبك.»

وفجأة، بدأت تقهقه: «سام؟! مدبر الزيجات؟ هذا رائع؟!»

قال هامساً: «امر رائع، حسناً...»

سألها حين سمعا طرقاً على الباب: «هل تظنين ان علينا ان ندخله ونخبره بأن خطته نجحت.» مدت يدها إلى يده وهي تضحك، ثم ترافقا كي يزفا لشقيقها بالأنباء السارة.

الخاتمة

بعد انقضاء سنة، كانت المزرعة تتوهج بالأنوار، والموسيقى تصدح، وأكثر من ذلك، فقد وصل جمع من الأصدقاء وافراد العائلة.

كانت مناسبة العيد وعيد مولد ستورمي معاً، وفي تلك اللحظة، كانت الصغيرة ذات الشعر الأسود والعينين الخضراوين، تبكي بكاءً مراً، فقد سمح ابن عمها بن للكلبين بأن يدخلا إلى المنزل كي يلاعبهما مع ستورمي. لكن العم نك أسرع وطرد جايك وليو إلى الخارج مفسداً عليهما فرحتهما.

قالت كاثلين لستورمي، وهي تجذبها إلى حضنها وتحاول مواساتها: «لا يمكننا ان نبقي الكلبين في الداخل مع كل هؤلاء الناس، وانت لا ترغبين بأن يلتهما كعكة العيد!

وأشارت الطفلة بيدها إلى الباب وهي تبكي.

«انها تعرف ما تريد، يا كاثلين.» قالت إيلا، وهي تسير في الغرفة حاملة صينية عليها بعض السندويشات والعصير.

«ربما ان انت رافقتها إلى الخارج لترى الكلبين لدقيقة أو اثنتين قد يرضيها ذلك.»

رمقت إيلا ابنها بنظرة ماكرة، وكان يحضن بذراعيه أوليفيا التي كانت حاملاً في شهرها السادس.

وقالت بذبول: «آه، اني متأكدة انه عندما يأتي طفلك إلى هنا، سوف لن تفسده أبداً.»

ربت سام على يد اوليفيا، وقال مؤكداً لأمه: «مطلقاً.» ثم التفت إلى أخيه الذي كان يراقص أليسون التي كانت حاملاً أيضاً. «وأنت لن تفسد طفلك، أليس كذلك يا نك؟»

ضحك نك وقال: «ماذا؟ نفسد طفلنا الآتي؟! كلا، ابداً! نحن لم ندلل بن ولن ندلل الطفل القادم، سنقوم بتربيتهم طبقاً للنظام العسكري، صح، يا أليسون؟!»

انفجر الجميع بالضحك في كل مكان من الغرفة.

وردت أليسون قائلة: «صح يا نك، لذلك انسل بن إلى غرفة الاستقبال وأذن للكلبين بالدخول.»

مد روس يديه والتقط ستورمي من حضن كاثلين التي كانت قد تغيبت عنه طيلة الأشهر القليلة الماضية، وقد شعر الجميع بالفرح والتعجب حين علموا ان كاثلين كانت حاملاً في الشهر السادس، لتبرهن للأطباء ولعائلتها، ان الحب حقاً يصنع الاطفال.

وأردف روس مخاطباً الجمع: «حسناً، اما انا وكاثلين لا نستطيع ان نقول اننا لن نفسد طفلنا، لأن ستورمي قد أفسدت سلفاً.»

وناقضه الوالد القول، مضيفاً باعتزاز: «انها ليست مفسدة، لكنها عنيدة مثل عائلة غالاغر.»

فجأة دخل بن إلى الغرفة مسرعاً، ولم يتوقف إلا حين وصل إلى الكنبة حيث كانت ستورمي جالسة في حضن والدها تبكي.

«خذي يا ستورمي.» وقدم لها لعبة بشكل كلب: «يمكنك ان تأخذي بادي، فهو كلب حسن.»

جفت دموع ستورمي على الفور، وهي تتناول اللعبة بيديها، ثم انزلقت إلى ارض البلاط لتلعب بها.

وبعينين دامعتين، نظرت كاثلين إلى روس وابتسمت. فهتف روس بحنان ساخر: «حين يسكت طفل، يبدأ الآخر بالبكاء، ما على المرء ان يفعل؟!»

أجاب الوالد مازحاً: «أدعو بأن يكون الطفل الآخر صبياً.»

بعد عدة أسابيع استجيبت الدعوات.

تمت

www.elromancia.com
مـــــكـــتـــبـــة